
رواية..
ثراء
تأليف:
ريم الرفاعي

رواية ..

ثراء

تأليف : ربيع الرفاعي

2015

بسم الله الرحمن الرحيم

"نشكر الله على النعم التي وهبنا إياها ، وأهمها

نعمة الوالدين ، فلا يوجد من هو أهم منهم،

فحافظ عليهم وكن لهم سنداً كما

كانوا لك من قبل. . اسأل الله

أن يحفظهم ويطيل في

أعمارهم ، أينما

كانوا ، وكيفما

كانوا"

** الإهداء **

- إلى رقتي اللتان أعيش عليهما "والدي" . .

تنويه:

"في حال وجود أي تشابه في الأسماء والأحداث مع شخصيات وأحداث حقيقية يكون ذلك من باب الصدفة البحتة وغير مقصودة"

• المقدمة •

الحياة خُلقت لنا نحن . . وقد خُلِقنا فيها لنتعرف عليها ولنستكشف أسرارها وخفاياها . .

نكون كالموج ! ! نغوص في الأعماق ، لكن سرعان ما نعود إلى الشاطئ وإلى موطننا الأصلي .

حيث تكون العقبات هي العامل الأساسي في الطريق . .

لكن لطالما وجدنا من يستطيع تحمل العبء والمصائب عنا ، وسماع شكوانا ، بل ومساعدتنا على تخطي هذه العقبات . .

فمن بإمكانه مرافقتنا في حياتنا بأكملها ؟ ومن يستطيع تحمل الأخطاء التي نرتكبها ؟

إن لم يكن بوسع الوالدين فعل ذلك فمن سيفعل ؟

-الثقة والدعم، المساعدة والراحة، الحب والعاطفة، السعادة والفرح

هي أشياء قيمة لا نشعر بها إلا بوجودهم . .

وفي النهاية يأتي بعض الأبناء ليرموا بتلك السنين ويهجرون من قام برعايتهم يومًا ! . .

فالطيبة التي يكنها الوالدين تجاه بعض الأبناء تجعلهم يقومون بأمور بشعة تجاه آباءهم .

وعندما يجبر ابن أو ابنة والديهما على مغادرة المنزل والانتقال للعيش في مكان بعيد عنهما ، حينها فقط يشعر الأهل بأن الثقة والطيبة التي حملوها طوال سنين حياتهم لم تكن سوى "جرم" .

لكن الحبّ والإهتمام ليس بخطيئة ! . .

إنما نفسية الأبناء الضعيفة الهشة، هي من سولت لها نفسها لتحمل الشر والكراهية .

والمطلع القرآن الكريم قد وصى بالوالدين لقوله - تعالى -:

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ ﴿الإسراء/٢٣-٢٥﴾

والآية الكريمة لخصت كل شيء .

« الفصل الأول »

(عام 1940)

وفي بلدةٍ صغيرة ، عاش توفيق وسمية حياة بسيطة جدًا لها ملاذها الخاص . .

لكن حلقة من السعادة كانت مفقودة . .

فكان لهما أحلام تمنيا تحقيقها سويةً ، وأمانيهما كثيرة كالجميع ، لكن أهمها فرد جديد يضفي على العائلة البهجة الناقصة ويكمل سعادتها .

سمية وتوفيق تزوجا عام 1922 ، بعد أن أمضيا طفولتهما معًا في البلدة . .

توفيق يعمل كحطّاب ، وسمية تعمل بالخياطة والحياكة . . أما الحالة المادية فهي متدنية جدًا من دَين ، وصعوبات الحياة المعتادة . .

لكن الدفء الذي يسود المنزل جعل الأمر أكثر بساطة ، فحبهما للعمل وما يفعلان جعلهما يجتازا الكثير من الأمور الصعبة .

ريم الرفاعي

"بإرادة الله ، وإذا كانت الأماني صادقة نابعة من قلب نقي ومن شخص صالح ،

غالبًا ما تُستجابُ" .

هذا ما حدث معهما أيضًا . . نية طيبة وقلب مملوء بالشفافية والصدق ، منّ الله

عليهما بطفلة كالزهرة الصغيرة التي لم تتفتح بعد .

وقد أصبحَ الخامس من ديسمبر تاريخٌ مهمٌ بالنسبة لهما ، ففيه الحلم أصبح

حقيقة . .

"عندما نحصل على ما نريد وبعد انتظار طويل ، وبعد أن كنا قد فقدنا الأمل

بأحلامنا ، تأتي الشمس بنورها لتضيء عتمة حياتنا . . أما السعادة التي تأتي مع

نيل المُبتغى تكون مختلفة عن جميع أنواع السعادة الأخرى"

توفيق وسمية راودتهما ذات المشاعر ، فعند رؤية توفيق للطفلة دمعت عيناه قائلاً :

انظري يا سمية! انظري إلى طفلتنا ، إنها صغيرة جدًا !..

أخاف أن أحملها لمدة طويلة . . خذيها .

فضحكتْ سمية لحاله . . ودمعتْ عيناها . .

ريم الرفاعي

وكانت الدموع تعبر عن السعادة ، وعن أمالهما المتعلقة بهذه الطفلة.

"هكذا هو الإنسان ، لا يستطيع ردع دموعه حتى في لحظات الفرح ، وفي لحظات تاق لها منذ زمن ، لأنه حينها يصعب عليه التحكم بأحاسيسه" .

وبعد اتفاقاتٍ طويلة ونقاشاتٍ مستمرة ، تقرر اسم الفتاة ، ألا وهو "ثراء".

كان سببِ إختيارهما لهذا الاسم "الفقر" . .

فلعل هذه البداية تكون لهم حياة جديدة وخطوة أولى في حياةٍ كريمة .

جميع من رأى تلك الطفلة الصغيرة ، طرق على الخشب خوفًا من الحسد ، لجمالها وبراءتها . . تلك الفتاة الصغيرة ذات العينان الزرقاوتان والشعر الخفيف الذي يكاد يملئ فروة رأسها . . أذهلت الجميع بوجودها .

أصبحت ثراء تكبر امام أعين والديها اللذان تاقا لهذه اللحظات منذ سنين.

ريم الرفاعي

إلى أن بلغت عامها السابع . .

وفي تلك الحقبة لم تكن المدارس و الجامعات منتشرة في البلدة ، ولم تعتاد الناس

هناك على ارتيادها فأخذت ثراء تتعلّم الخياطة والحياكة من والدتها . .

هذا الأمر جعلها تشعر بالسعادة لأنها أحبت هذه المهنة ، فكانت تقوم بمساعدة

والدتها بالعمل والبيع.

ريم الرفاعي

« الفصل الثاني »

وعندما بلغت ثراء سن الخامسة عشر ، حصلت معهم حادثة غيرت مجرى حياتهم . .

تلقت سمية وثراء خبر من المستشفى القريبة منهم ، خبر يحمل وفاة توفيق.
حيث كان متجه إلى العمل . . فحين بدأ بتقطيع الأشجار كان الأمر طبيعي ، لكن بعد لحظات من العمل لاحظ أحد العاملين سقوطه أرضا ، فقام بنداء كافة العاملين وتم نقله إلى المستشفى ، لكن لسوء الحظ وصل متأخرا ولم يستطع الأطباء إنقاذه ومات جراء أزمة قلبية .

عندما رأت سمية الجثة لم تستطع تصديق الأمر ، فبدأت بالبكاء والصراخ ، وسرعان ما انهارت وسقطت أرضا . . فلم يكن بوسع ثراء سوى تهدئتها والوقوف بجانبها في هذه اللحظات الصعبة ، في حين أنه لم يكن باستطاعتها تقبل الأمر وتحمل الألم .

ربيع الرفاعي

"نُجبر أحيانًا على التظاهر بأننا أقوياء لكي نكون الداعم والسند لمن نُحب" .

خسرت ثراء أغلى ما تملك في حياتها . .

شخص عزيز على قلبها . . تعلّقها به ، شكوتها له من والدتها ، حنانه عليها وحبه لها . . هي أشياء ستفتقد لها ولن يتبقى منها سوى الذكريات .

"هذه هي الحياة . . تعطينا الشيء فنحبه ونتعلق به . . لكن يفوتنا امر ، بأنه سيأتي يوم وتنتزعه منا دون سابق إنذار .

الله متفضّل علينا بكثير من النعم ومنها نعمة النسيان ، ليس المقصود هنا نسيان الأحبة بل نسيان الحوادث التي تواجهنا خلال رحلتنا في الحياة . . لكن تبقى معنا ذكريات أناس سنفتقد لهم بكل خطوة نخطيها ، وهذه الذكريات تبقينا على قيد الحياة" .

تلقيا التعزية في منزلهما ، حيث حضر جميع أهالي البلدة لمساندتهما في هذه الأوقات العصيبة . .

كانت هذه الأيام من أصعب الأيام التي عاشتاها .

استمر العزاء لمدة ثلاثة أيام ومن ثم انتهى ، لكن العزاء بداخلهن لن يتوقف ابدًا ! .

وبعد شهر تقريبًا من الحادثة عادت ثراء وسُمية إلى العمل ، ليكسبا قوتهما واحتياجاتهما اليومية . .

لكن حياتهما لم تعد كالسابق ، اختلفت تمامًا وأصبحت مليئة بالصمت والهدوء .

وأصبحت البلدة كأنها غريبة عنهما ، فكل شيء تبدل ولم يعد كالسابق ! .

ريم الرفاعي ...

« الفصل الثالث »

ومع مرور الوقت وتقلب الأيام ، بدأتا بالإعتياد على حياتهما الجديدة . .

وخاصةً بقدوم فتاة انجليزية الى البلدة تُدعى "مارلين" ، جاءت بنية العمل في البلدة لإفتتاح محل تصفيف الشعر .

فقد كان هذا الشيء متطور ومعروف في بلادها إلا أن سكان البلدة يجهلون آخر صيحات الموضة في تسريحات الشعر ، وبما أن فتيات الحي ليس لديهن خبرة في هذا المجال ، قررت تعليمهن الأساسيات ، ومن ثم يعملن في محلها ويحصلن على راتب مناسب ، وبالتالي ستستفيد هي من ذلك بحكم أنه مشروع جديد في البلدة .

سمعت ثراء بالأمر وتحمست للفكرة ، وأخبرت والدتها بذلك . .

لكن سُمية عارضت الفكرة لأن الفتاة إنجليزية و عاداتهم وتقاليدهم مغايرة ، وخوفها على إبنتها منعها من ذلك .

ريم الرفاعي

حزنتْ ثراء من قرار والدتها لأنها أرادت الذهاب بشدّة .

وفي اليوم التالي ومع شروق الشمس ، وبعد تفكيرٍ طويل من سميّة . .

سمحت لِ ثراء بالذهاب ، لأنها أرادت رؤيتها سعيدة وخاصةً بعد وفاة والدها .

فأخذت تكلّمها :

ثراء ، تعالي اجلسي بجانبي.

فأخذت تحدّثها :

يا بنيتي لطالما شعرت بالقلق عليكي من أبسط الأشياء ، ولم أعتد أن تغيبي مدة طويلة عني وأن تبقي خارج المنزل لوقت طويل.

ريم الرفاعي

بعد سماع ذلك ، أيقنت ثراء بأن والدتها لن تسمح لها بالذهاب ، فشعرت باليأس وأشاحت بنظرها إلى الأسفل.

لكن شرعت سميّة تكمل :

لكني لن أمنعك من الذهاب . .

فماذا تريد الأم من هذه الدنيا سوى سعادة أبنائها ؟

واعلمي دائمًا بأنك أغلى ما أملك . .

كانت ثراء في غاية السعادة ، وأخذت تعانق والدتها بشدة . .

وكانت سمية سعيدة بذلك.

فأخذت تذهب كل يوم .. تتعلم القص وأمور أخرى.

وبعد أن أصبحن مؤهلات للعمل ، بدأن جميعهن بالعمل الرسمي في محل مارلين ، فقد أصبح هذا المكان معروف لدى الجميع ، فهو الأول من نوعه في بلدة صغيرة كهذه.

فالجميع يذهب إلى هناك برغبة تغيير شيء ما بمظهره.

أما ثراء فقد أصبحت متميزة في هذا المجال ، وسرعان ما تطورت وأصبحت تحصل على راتب شهري تساعد والدتها .

شعرت سمية بالسعادة لما قامت به ابنتها ، وشعرت بالفخر بها أمام الجميع.

ريم الرفاعي

وبعد مرور حوالي عامين . .

إكتفت مارلين من العمل بهذا المجال ، بحيث قررتْ بيع المحل والعودة إلى بلادها .

علم الجميع بهذا الأمر ، وشعروا بالحزن لمغادرتها ، لكن لم يكن بوسعهم سوى التمني لها بحياة سعيدة ، فقد كانت لهم خير معلمة وخير صديقة . .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الرابع »

وبِ بلوغ ثراء عامها السابع عشرة ، بدأت عروض الزواج تنهال عليها . .

لكن سمية لم ترد أن تزوج ابنتها الوحيدة إلا لشاب محترم ، بحيث تستطيع أن تضمن

لها مستقبل جيد مع عائلة تحبها وتقدرها .

ريم الرفاعي

لكنّ ثراء كانت رافضة للفكرة تماما ، فلم ترد أن تترك والدتها وحيدة . .

إلا أن سمية لم تأبه لقرار ثراء ، واستمرت بالبحث عن العائلة المناسبة . .

وفي إحدى الأيام ، ذهبت سمية إلى غرفة ثراء ، فوجدتها مشغولة بالحياكة . .

فأخذت تكلمها بودّ :

ثراء ، اريد التحدث معك بموضوع سيحدد مستقبلك .

-أمي ، ليس من جديد ! . .

لقد سبق وأخبرتك بأنني لا أنوي الزواج من أحد ، أريد أن أبقى بجانبك طيلة

حياتي ، فأنا لا أستطيع الإبتعاد عنكِ. . ولكنكِ لا تهتمين!

لا! . . لا يمكن لهذا أن يحدث ، وقد اتخذت قراري.

- ومن قال بأنك ستبتعدين عني؟

لا يمكن لأحد أن يُبعدني عنك ، تستطيعين زيارتي في أيِّ وقتٍ شئتِ. .

فـ لقد سبق وخططنا أنا ووالدك لهذا اليوم. .

ثم أنكِ لا يمكنك الرفض فأنا أريد تحقيق حلم والدك. .

وبعد إقناع طويل من قبل سمية ، وافقت سراء على طلب والدتها ، فتحقيق حلم والدها سبب قوي لجعلها تُقدم على هذا القرار المصيري.

وبعد يومين ، جلست سمية تناقش موضوع الزواج مع "مجدولين" . .

أخذت مجدولين تتكلم عن شقيقها :

يبلغ "مؤيد" من العمر أربعة وعشرون عاماً . .

قصد المدرسة ووصل إلى الصف التاسع ، لكن بعد وفاة والدينا قرر ترك المدرسة نهائياً . .

ربيع الرفاعي

كما أنه يمتلك محل للملابس ومنزل في المدينة .

هو شاب صالح ، الا أن لديه عادة سيئة ألا وهي التدخين.

شعرت مجدولين بأنها كانت محظوظة لحصولها على زوجة أخ كـ ثراء ، فالجميع كان يتكلم بأخلاقها الحسنة واخلاق عائلتها .

لكنها أخبرت سمية بأن مؤيد غير موافق على عمل ثراء بعد الزواج .

وافقت سمية على طلب مجدولين ، لأنها على يقين تام بأنه سيعتني بثراء ويهتم بها .

...

ريم الرفاعي

« الفصل الخامس »

استيقظت سمية صباح الثاني من اكتوبر ، حيث كان يوم مهم بالنسبة لها .

و بِـ وصول الضيوف إلى الحفلة ، كانت سمية قد حضّرت أشهى أنواع الحلويات وعصير التوت الطبيعي ، الذي قامت بقطفه بنفسها . .

ومن ثم خرجت ثراء ليراها الجميع . .

ريم الرفاعي

كانوا مذهولين بجمالها وحُسنها .

فقد كانت خجولة في ابتسامتها ، وناعمة في خطاها . .

لكنها تمنت وجود والدها معها في هذا اليوم ليشاركها سعادتها .

وسمية التي كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن كما سبق وخططت مع توفيق ، لم تتخيل ابدا بأنها ستكون وحيدة في هذا اليوم.

وبعد الغناء والإحتفال الكبير ، عاد الجميع إلى منزله سعيد بهذه المناسبة ، لكن مؤيد وبجدولين بقيا في منزل سمية وقررا المغادرة في صباح اليوم التالي.

ومع انتهاء الليلة ، جلست سمية مع ابنتها وأخذت تحدثها :

اسمعي يا ابنتي ، لقد سبق وأخفيت عنك امرًا ولست نادمة عليه إطلاقًا .

- ما الأمر يا أمي ؟

- وفقًا لطلب مؤيد وشقيقه لن تعملي بعد الزواج ، وفي الحقيقة انا وافقت على ذلك دون علمك . .ثم أكملت :

على كل حال . . لن تكوني بحاجة إلى العمل بعد الزواج ، فهم ليسوا فقراء مثلنا وستكونين سعيدة معهم.

كانت ثـراء مستغربة من قرار والدتها وغاضبة ، لأنها لم تناقشها بالأمر . . وهي على دراية كاملة بأنه لا مجال للمناقشة ولا فائدة من الإعتراض . .

ريم الرفاعي

فوافقت عليه لأنها لم ترد أن تعصي أمر والدتها .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل السادس »

وقبل يومين من الزفاف ، انتقلنا إلى المدينة .

ومكثنا في منزل مؤيد الذي تركه لهما ليستريحا به ، وانتقل هو للإقامة في منزل بجدولين وزوجها "عمر" .

وعندما أحضر مؤيد ثراء ووالدتها إلى المدينة بسيارته الخاصة ، انبهرتا من جمال المنزل وتحضره ، وهنا علمت سمية بأن ابنتها ستكون سعيدة ، وضمنت لها مستقبل مرح .

ريم الرفاعي

ومع بدأ الإحتفال . .

تعرفت ثراء على الكثير من الناس ومن بينهم صديقة العائلة "يارا" . .

حيث قدّم الجميع للعروسين التهاني والتبريكات وتمنوا لهما حياه زوجية سعيدة .

وبإنتهاء الحفلة . . قررت سمية البقاء معهم في المدينة ، تعود إلى البلدة في صباح

اليوم التالي . .

وحاول الجميع إقناعها بالإنتقال للعيش معهم ، لكنها رفضت لعدم قدرتها على ترك

البلدة التي نشأت بها وعاشت أجمل أيام حياتها فيها مع توفيق . .

كانت تعلم بأن المنزل سيصبح كئيب بغياب ابنها ، إلا أنها حاولت أن تعود إلى

العمل كالسابق وتمضي حياتها .

ثراء كانت سعيدة مع زوجها ، إلا أنها كانت مستغربة من بعض العادات التي كان

يقوم بها . .

تشغيل الراديو صباحًا ، الإستماع لفيروز ، وقراءة مجلة الصباح . .

جميعها كانت جديدة بالنسبة لها ، حيث أنه كان يفعل ذلك يوميًا . .

ومن جهة أخرى شعرت ثراء بالغربة في هذه المدينة الكبيرة بعيدًا عن والدتها ،

ريم الرفاعي

لكن مؤيد كان يحرص على أن تقوم ثراء بزيارتها في كل أسبوع ، لتقضي يومها برفقتها .

...

ريم الرفاعي

« الفصل السابع »

كان كل شيء يسير على ما يرام إلى أن .. !!

كالعادة ذهبت ثراء لزيارة والدتها ، وكان زوجها يرافقها ، ولحظة وصولهما شعرت

ثراء بالتوتر لوجود حشد حول منزلهم ، فسارعت إلى المنزل ..

وعندما رأى مؤيد ذلك خرج من السيارة ، وانطلق مسرعًا نحو المنزل ..

وحين دخولهما المنزل علما بأن سمية قد وافتها المنية ..

شرع مؤيد جداً من روع ثراء التي كادت تسقط أرضًا .

سمية توفت وهي تعمل كما حصل مع توفيق ..

وبغيابهما أصبح المنزل بارد ومظلم ..

ريم الرفاعي

كانت خسارة والدتها شيء يصعب تحمله ، فلم تستطع نسيانها للحظة .

لكن بوجود أشخاص معنا تساندنا وتساعدنا في أصعب لحظات حياتنا ، يخفف عنا الألم ويجعلنا أكثر تقبلاً للواقع المرير.

وتركت المنزل كما هو دون أي تغيير كآخر ذكرى من والدتها .

اعتادت شراء حياة المدينة ، وتكررت الزيارة بينها وبين مجدولين ، أما يارا أحبت شراء جدًا وكانت دائمًا ما تقوم بزيارتها وتمضية الوقت معها . .

وبعد مرور عدة أشهر . . قامت مجدولين بدعوة شراء لحفلة عيد ميلاد طفليها وأصرت عليها أن تحضر مع مؤيد . .

وافقت شراء على دعوتها وأخذت تفكر بهدية مناسبة للطفلين .

لكنها سرعان ما فكرت بأن تحيك لهما معطف ، فأخرجت الإبرة الخاصة بوالدتها وأخذت تحيك لهما معطفين بألوان مختلفة . .

وحالما انتهت من الحياكة ، وصل مؤيد إلى المنزل ينادي :

ريم الرفاعي

ثراء . . أين انتِ؟

فخرجت حاملة معها المعطفين قائلة :

ما رأيك ؟

- رائع ! فلقد كنت أفكر بهدية مناسبة للطفلين ، لكنك سبقتني . .

متى ذهبتِ لشرائهما ؟

ثراء ضاحكة :

أنا من قمت بحياكتهما ، لطالما أجدت ذلك . .

- لقد كنت اعلم بانك تعملين بهذا المجال ، لكن لم اعلم بانك محترفة هكذا !

وعليكي ايضًا ان تحيكي واحدًا لي بلونٍ أسود .

- بالطبع سأقوم بذلك ، لكن دعنا نذهب أولًا والا غضبت مجدولين . .

وعندما وصلا إلى الحفلة ، انبهرت مجدولين من جمال المعطفين قائلة :

يا للروعة!

انتِ من قمتِ بحياكتهما أليس كذلك؟

ريم الرفاعي

- نعم ! كيف علمتي بذلك؟

- عندما زرت والدتك - رحمها الله - عرضت عليّ البعض من أعمالك وجميعها كانت مميزة كهذه. .فعلمت على الفور بأنك انتي من قمتي بذلك .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الثامن »

وبعد عامين. . .

اعتادت ثراء حياة المدينة ، وخاصةً عقب أنجابها لـ "توفيق" .

مؤيد هو من أصرّ على تسميته بهذا الإسم لأنه يعلم بأن هذا الأمر سيسعد ثراء . .

تمنت ثراء وجود والديها معها لرؤية أول حفيد لهما .

بدا توفيق الصغير يشبه إلى حدٍ ما توفيق الكبير.

وكما حملت ثراء البهجة معها إلى المنزل عند ولادتها ، كان لتوفيق نفس التأثير

عليهم ، بحيث ملأ المنزل بالبهجة والفرح.

لكنّ ثراء لم تنفك تطلب من مؤيد الإقلاع عن التدخين ، إلّا أنّه لم يستطع مطلقًا فعل

ذلك . .

فقد اعتاد عليه بحيث أصبح جزء منه . . حتى بعد ولادة توفيق لم يستطع

الإستغناء عنه ، رغم علمه بالضرر الذي يسببه . .

ريم الرفاعي

بدءا حياة جديدة مع فرد جديد ، واهتما بتربية توفيق جيدًا ، وكان مدللاً جدًا من قِبل ثراء ، حيثُ سعت لتلبية طلباته دون ملل.

وعادت إلى العمل من جديد لكن لهدفٍ مختلف ، فقد أرادت أن تحيك لطفلها الصغير ملابس من صنعها .

علموا فيما بعد بخبر سفر بجدولين ، بعد أن قررت السفر لإنجلترا مع عائلتها .

الأمر الذي أزعج مؤيد جدًا ، أما ثراء فقد حزنت كثيرًا لأنها كانت تعتبر بجدولين بمثابةِ أختٍ لها .

لكن زوجها كان قد حصل على عملٍ هناك ، فلم يكن باستطاعة ثراء ومؤيد سوى تمني حياة جديدة لهم تحمل معها مستقبل جميل ، وظلوا على أمل اللقاء بهم من جديد . .

بقيَ مؤيد وحيد كثراء ، فلم يتبقى لهما أحد سوى عائلتهم الصغيرة الدافئة .

كانت مشاعرهما متشابهة ، لذا كان من السهل عليهما مؤازرة بعضهما وتعويض نقص الأحبة.

ريم الرفاعي

وما كان لثراء إلا أن تهتم بتوفيق . .

كما أنها وطدت علاقاتها مع جيرانها وتكررت الزيارة فيما بينهم.

هكذا تملكهم الوقت ، يمضونه بمحاولة نسيان الماضي وتكوين علاقات جديدة مع أناس جدد .

ريم الرفاعي

« الفصل التاسع »

ومع مرور الزمن بلغ توفيق عامه الثالث . .

حيث أصبح لديه أخٌ صغير ، " ربيعٌ " . . ثراء اختارته نسبة لإسم والد زوجها . .

اعتنت ثراء بطفليها جيدًا وكانت دائمًا ما تُلبي احتياجاتهما . .

بدأ توفيق يفهم الحياة قليلًا ، وكان يحب أن يلعب مع ربيع ويجلس برفقته ، وكانت ثراء سعيدة لوجود هذه المحبة بينهما وتمنت دوامها الى الأبد .

لم يكن باستطاعة مؤيد تمضية وقت كبير مع أبنائه كثراء ، لأنه كان يحاول بقدر ما تأمين حياة كريمة لهما ومستقبل مرح.

ريم الرفاعي

كان ربيع مدالَل من قِبل الجميع باعتباره الأصغر.

مما أصاب غيرة توفيق الذي شعر بأن اهتمام الجميع موجه نحو أخيه، لكن ثـراء

فهمت ذلك بوقت مبكر.. فأخذت تكلمه:

طفلي عزيزي، ما رأيك بأن نلعب سويةً؟

لكنه لم يعيرها اهتمامه.

- اسمع يا توفيق، لا يمكن لأحد ان يحل مكانك، انت الابن الأكبر لهذه العائلة.

لكن ربيع طفلٌ صغير.. مولود جديد اتى إلى هذا العالم، وينبغي علينا جميعًا أن

نحبه ونهتم به.

ولا تنسى ابدًا انه شقيقك الأصغر ويجب عليك أن تحبه وتحميه..

انت مصدر الدعم له..

ان لم تكن أنت موجود فمن سيقف بجانبه؟ وهل ستكون سعيدًا لو أنه لم يكن

بيننا؟

فاومأ برأسه.

ربيع الرفاعي

فأخذت تعانقه بقوة وتلاعبه وتضحكه ، والأهم من هذ كله أنها شعرت بالراحة لأنها أدركت ذلك قبل فوات الاوان وقبل أن تنمو الضغينة في قلبه.

ولتقضية الوقت أستمرت ثراء بالعمل لتحيك ملابس لعائلتها .

من المعروف أن الدخان يسبب الكثير من الأضرار والأمراض ، وبسبب ذلك بدأ يؤثر على صحة مؤيد . .

وبما أنه كان غير مقتنع بفكرة الإقلاع عنه ولم تكن له الرغبة بذلك ، لم يكن بوسع ثراء أو أي احد آخر أن يمنعه من ذلك.

•••

ريم الرفاعي

« الفصل العاشر »

استمرّ ذلك إلى أن بلغ توفيق عامه السابع ، وبعد علم مؤيد بحمل ثراء قرر ترك الدخان نهائيًا خوفًا على أبنائه ، وذلك عقب الحادثة التي حصلت معه! . .

فمنذُ أسبوع تقريبًا ، وعند عودة مؤيد من العمل ، أخذ يشاهد التلفاز مع ابنه ربيع حيث قام بإشعال سيجارته ، وذهب إلى دورة المياه.

أخذ ربيع السيجارة ليفعل كما يفعل والده ، وإذ يصاب بالإختناق ويبدأ بالسعال ، سارعت ثراء مع خوفها الشديد لترى ما الذي يحدث!

ربيع الرفاعي

فذهلت مما رأت . .

ولم يتحسّن إلّا بعد تناوله القليل من الماء . . .

هذه الحادثة كانت نقطة تحوّل في حياة مؤيد فمنذ تلك اللحظة قرر الإقلاع عن التدخين ، وكان يعلم بأن هذا القرار هو أفضل قرار قد اتخذه في حياته .

كان الجميع يهتم بثراء ، لحرصهم عليها وعلى الطفل الذي سيولد قريبًا .

وفي أول يوم لتوفيق في المدرسة ، استيقظ الجميع باكرًا ، وبدأتْ ثراء بإعداد

الفطور لزوجها وتوفيق اللذان سيغادران حالما ينهيا فطورهما .

وفور وصوله شرع بالبكاء كباقي الأطفال ، ولم يتوقف عن ذلك للحظة . .

وعند انتهاء المدرسة عاد مؤيد لنقله الى المنزل.

وحينما وصلا . .

- استلمي مدللك ، لقد انهك المعلمين من كثرة البكاء .

أخذت ثراء تعانق توفيق وتقول :

ماذا تقصد يا مؤيد ؟ انه مجرد طفل . . سيشعر بذلك بالتأكيد ، فهذه المرة الأولى

التي يغيب بها عن المنزل . .

- هذا فقط نتيجة دلالك الزائد له . .

ابتسمت قائلة :

ريم الرفاعي

انه فتاي إن لم اعتني به فمن سيفعل ذلك؟

- حسنًا ، لقد فهمت. ومن ثم خرج وبصوتٍ منخفض :

الأم وابنها !! ...

وفي يوم من الأيام طلبت المديرة من توفيق أن يخبر والديه بأن يحضرا إلى المدرسة . .

وعندما قام توفيق بإخبار والديه بذلك ، شعرا بالتوتر . .

وقاما بتحضير نفسيهما . .

وعندما وصلا إلى المدرسة التقيا بالمديرة التي قامت بتهنئتهما على ذكاء ومهارة توفيق

وطلبت منهما أن يحرصا دائما على الاهتمام بدراسته .

فأخذت ثراء تتحدث :

عفوًا !! لكننا لسنا من قمنا بتدريسه ، فأنا لم أقصد المدرسة ابدًا . .

أعتقد انه ذكي لدرجة استيعابه السريع بالفصل مع الأساتذة.

تعجبت المديرة من كلام ثراء ، وقالت :

ريم الرفاعي

أحييك على شجاعتك وصراحتك ، فأنا لم أرى ابدًا إمرأة بصدقك ، فقد أحسنتي تربية توفيق ليظهر بهذه التربية الحسنة .

شعر مؤيد وثراء بالفخر ، وكانا يفكران بأنه إن استطاع أن يكون هكذا في صغره ، فما الذي سيكونه عندما يصبح شابًا !..

ريم الرفاعي

« الفصل الحادي عشر »

وكما هو الحال في كل يوم ، قامت يارا بزيارة ثراء لتُمضي معها بعض الوقت.

و فجأة ، رن هاتف المنزل . .

ثراء :

نعم ؟!

- هل هذا منزل السيد مؤيد ؟

- تفضلي؟

- لقد عثرنا على رقم هاتف المنزل في محفظة السيد مؤيد . . أنا ممرضة من المستشفى المركزية ، تم نقل السيد مؤيد إلى هنا منذ قليل ، وهو في غرفة العمليات الآن ، ويجب أن نُعلم أحد من عائلته . .

ريم الرفاعي

قطعت ثراء الإتصال وخرجتْ مسرعة.

كانت متوترة جدًا وقلقة..

وعندما وصلت إلى المستشفى، سألتهم عن زوجها..

فأخبروها بأنه في غرفة العمليات وبأن عليها الإنتظار..

فأخذت تنتظر أحدًا ليخرج ويطمئنها على زوجها، لكن عندما

نفذ صبرها ذهبت تسأل إحدى الممرضات:

ما الذي حدث للمريض الذي وصل منذ قليل، هو زوجي ويُدعى "مؤيد".

- لا أعلم إن كان هو، لكن هناك رجل تم اسعافه منذ قليل من قِبل بضعة رجال

بعد أن تعرض لحادث شديد.

-لا !! ليس هو..

وتمنت في قرارة نفسها أن لا يكون ذات الشخص.

وبعد ساعة تقريبًا خرج الطبيب من غرفة العمليات، فأخذت ثراء تحدثه:

ريم الرفاعي

أخبرني ايها الطبيب ، كيف حاله الآن ؟

- لقد قمنا ما بوسعنا . . لكن جروحه عميقة جدًا وعلينا الإنتظار . .

- لكن كيف حدث له هذا ؟ خرج من المنزل سليمًا .

- لقد قمنا بفحصه ، وعلمنا بأنه تعرّض لضيقٍ في التنفس قبل الحادثة . .

لكن سؤالي لكي . . هل كان يدّخن ؟

- نعم . . منذ زمن.

- لا تقلقي ، استمري بالدعاء ليخرج من غيبوبته .

وعندما رأتها الممرضة بهذه الحالة الصعبة ، قالت :

تستطيعين العودة الى منزلك ، سنخبرك حالما يستيقظ .

- لا لن أذهب سأبقى هنا .

- كما تريدين . . لكن وجودك هنا لن يفيد . .

فكرت ثراء بأبنائها ، لذا قررت العودة الى المنزل وزيارته في اليوم التالي.

ريم الرفاعي

وصلت إلى المنزل منهارة ، حيث ركض الولدان باتجاه والدتهما وأخذت تعانقهما بشدة والدموع تنهمر من عينيها ، وعندما رأت يارا ذلك أخذت الطفلين إلى غرفتهما .

أما ثراء أخذت تصلي وتدعي لشفاء مؤيد وأن يعود إلى بيته بكامل صحته . .

وبعد أن تأكدت يارا من نومهما خرجت لترى ثراء . .

وبدأت تسألها :

ثراء ، ما بك ؟ !

ما الذي حدث معك ؟ !

ريم الرفاعي

أخذت ثراء تخبرها بكامل القصة.

فقالت يارا :

لا عليك . .سيعود لكم إن شاء الله وسيكون بخير ، لا داعي للقلق بتاتا ، وإلا بم

سيفكر الأبناء؟ لن تسببين سوى الحزن لهما . .

تمالكي أعصابك ، ولا تنسي أنك حامل . .سنأذين نفسك.

والآن اذهبي إلى النوم ، وارتاحي قليلا . .

- لا أعرف حقيقةً كيف أشكرك على وقوفك بجانبنا في هذه المحنة ، لولاك . .

- توقفي رجاءً ! أنا لم أفعل شيئًا ، ولو كنت مكانك كنتي لتفعلي ذات الشيء ، انا على يقين من هذا . . والآن اخلدي إلى النوم.

ريم الرفاعي

« الفصل الثاني عشر »

وبعد ليلٍ طويلٍ مليءٍ بالغربة والأرق ، استيقظت ثراء باكرًا . .

وقبل أن يذهب توفيق إلى المدرسة ، أخذ يسأل :

أمي ، أين أبي؟

بالأمس لم يأتِ لاصطحابي من المدرسة!

ثراء بتوتر :

بني . . والدك ذهب ليقيم في منزل صديقه لبضعة أيام ، وسيعود قريبًا . .

وقال لي أخبري توفيق بأن يعتني بدروسه جيدًا إلى أن أعود .

- لماذا يقيم عنده ؟! أين عائلته ؟!

ريم الرفاعي

- لأن عائلته سافرت . . والآن اذهب مع الخالة يارا كي لا تتأخرا . .

وفور عودة يارا ذهبت ثراء إلى المستشفى تطمئن على زوجها .

وهناك رأت الطبيب . . فأخذت تكلمه :

ماذا حدث أيها الطبيب ؟ هل استيقظ زوجي ؟

- لا . . ليس بعد .

- لكن لماذا ؟ لمَ لم يستيقظ إلى الآن؟

- لأن . .

ريم الرفاعي

وإذ الممرضة تناديه بصوت مرتفع :

ايها الطبيب ! . .

ذهب مسرعًا ودخل إلى غرفة مؤيد ، فأسرعت ثراء لترى زوجها ، لكنهم أغلقوا الباب فورًا .

وبدخول الطبيب علم بأن قلبه قد توقف عن النبض ، فسارع ليعطيه صدمات كهربائية كمحاولة أخيرة لإعاده.

مرة . .

مرتان . .

ثلاث مرات . .

خرج الطبيب متأسفًا ونظر إلى ثراء ، التي سارعت باتجاهه قائلة :

ما الذي حدث ؟

- آسف ، لكننا لم نستطع إنقاذه رغم محاولاتنا المستمرة - عظم الله أجركم - . .

كانت ثراء مصدومة من كلام الطبيب !

لم تستطع تصديق ذلك ، فجلست منهارة.

- تستطيعين رؤيته غدًا صباحًا للمرة الأخيرة ، نأسف لخسارتك.

وبعد مرور ساعتين عادت إلى المنزل . .

طرقت الباب بوجهٍ شاحب . .

يارا :

ما الذي حصل ؟

ريم الرفاعي

- لقد توفي يا بارا ..

جلست بارا على الأريكة بصمت ..

"لا ندري متى يطرق الحزن بابنا ، ويحاول الدخول إلى حياتنا بأي طريقة ..

نحاول ردعه ونغلق جميع الأبواب في وجهه ، لكننا نجهل أنه قد يتسرب منا ومن حولنا" .

"القدر في بعض الأحيان له خطط مختلفة ، فعندما يأخذ منا أقرب الناس إلينا ويجعلنا وحيدين تماما .. نحمل أنفسنا ذلك ونفكر بأخطائنا وإن كان هذا عقاب على شيء قد ارتكبناه .. لكنه يبقى القدر !" .

ريم الرفاعي

لم ينم أحد في تلك الليلة ! .

وفي صباح اليوم التالي استيقظ الأبناء ، وبدأ توفيق بتحضير نفسه .

لكن ثراء قالت له محاولة اخفاء حزنها :

لن تذهب اليوم إلى المدرسة يا توفيق.

- لم لا؟

سأذهب ، فاليوم موعد المباراة . . وقد اتفقتُ أنا وصديقي أحمد بأن نهزم الفريق الآخر.

- لقد قلت لك لن تذهب . .

دخل توفيق إلى غرفته مستاء من كلام والدته ، فلم يسبق وأن تحدثت معه بتلك الطريقة.

دخلت يارا لتهدئ من روعه . .

بينما ذهبت ثراء لترى مؤيد للمرة الأخيرة ، حيث دخلت إلى غرفة الموتى الباردة ، فرأته مغلق العينان ، بارد الجلد.

لم تحتمل ذلك المنظر . .

خرجت مسرعة ، وبدأت تسير والدموع تسيل على وجنتيها ، لم تعرف إلى أين تذهب ، استمرت بالسير دون أي وجهة.

لكنها كانت امرأة قوية ، وخضعت للأمر . . حيث اتصلت بالمختصون بمراسم الدفن واتفقت مع الجميع ليحضروا ويقوموا بدفنه.

ريم الرفاعي

عادت إلى المنزل وجلست أرضًا ، وكانت منهارة تمامًا لرؤية زوجها بتلك الحالة التي لم تغيب عن ذهنها قط .

وتولت يارا أمور العزاء التي لم يكن بوسع ثراء تحملها .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الثالث عشر »

وبعد الانتهاء من العزاء ، حاولت ثراء جاهدة أن تُعيد لأبنائها حياتهم السابقة .

فكانت يارا تتردد عليهم بين الفينة والأخرى . . وفي زيارتها الأخيرة كانت منزعجة . . وإذ بها تقول :

ثراء . . ماهذا التصرف؟ لَم لم توقظيني كي أقوم بنقل توفيق إلى المدرسة؟

- لا ، فلقد قمتِ بمساعدتي بما يكفي، عليّ أن أتحمل المسؤولية الآن . .

- اصمتي ، ما الذي تقولينه؟

- هكذا ساكون مرتاحة أكثر .

- حسنًا ، كما شئتِ ، لن أجبركِ على شيء . . لكن لاتترددي بطلب أي شيء مني.

ريم الرفاعي

من ثم جلستْ يارا لتناول الفطور معهم ، فأخذت ثراء تحدثها قائلة :

يارا . .

- نعم!

- نحن نعرف بعضنا منذُ زمن ، لكن لم يسبق وأن تحدثنا عن عائلتك ! .

- ليس لدي عائلة ، أو بالأحرى لا أعرف من هم ! . .

لأنني نشأت في دارٍ للأيتام ، وفي الحقيقة أحب أن أزور ذلك المكان كلّ ما سنحت

لي الفرصة ، فلدي هناك معلمة بمثابة أم . .

- لم أعلم بهذا الأمر مطلقًا ! .

- نعم ، وانا لم اخبرك قط . . ربما لأنني اعتدتُ الأمر ، فأنا خرجت منه عندما

كنتُ في سن التاسعة عشر .

كنتُ أريد الإطلاع على العالم الخارجي وأن أتعرف على أناس جدد ، وأحمدُ الله

على وجود أناس مثلكم في حياتي.

ريم الرفاعى

- نحنُ ايضًا سعداء جدًا لوجودك معنا ، فبوجودك لم أشعر يومًا بالغربة في هذه المدينة الكبيرة ، ولا أنسى وقوفك الى جانبي في أصعب الأيام فقد كنتِ لي خير رفيقة.

- أرجوكِ يا ثراء . .أنتِ بمثابة أخت لي ولم فعل شيئًا على الإطلاق ، بل على العكس أنتِ من كنتِ دائمًا الى جانبي. .

وأخذتا تتبادلا الحديث الى أن حان موعد احضار توفيق.

وحين وصلا الى المنزل قالت ثراء :

انزع ثيابك ، واغسل وجهك ويديك وقدميك جيدًا .

وعندما أنتهى أخذ يسأل والدته :

أمي ، أين أبي ؟ ألم تعود عائلة صديقه؟

كانت ثراء مترددة ، فهي تعلم بأنه لن يستوعب ما ستقول :

عزيزي ، منذ ولادتنا جميعًا وهو مقدر لنا متى سنغادر هذا العالم لنذهب الى عالم آخر مختلف . . لا أحد يعلم بوجوده الا من يذهب اليه ، والأمر ذاته حدث مع والدك.

ريم الرفاعي

- ولن يعود أبي لعالمنا هذا؟

- لا لن يعود ، لكن سيحدث أن جميعنا سنذهب إليه.

- أنستطيع أن نذهب الآن؟

- لا يا توفيق ، وإلا سنسبب الحزن لوالدك لأنه يريد منا أن نبقى هنا ..

ثم ماذا عن أصدقائك ومدرستك هل تريد التخلي عنهم؟

- لا ..

- إذا انسى الأمر ولا تفكر به.

- حسنًا.

هكذا اقنعت ثراء توفيق بغياب والده.

ولأنها أرادت أن تبدأ حياة جديدة مع ابنائها، بدأت بالتصرف في ممتلكاتها ..

فقامت بوضع موظفين في محل الملابس وكانت هي المشرفة عليهم، كما وطلبت من يارا أن تعمل في المحل. .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الرابع عشر »

وهكذا مرّت الأيام والشهور . .

حيث كانت ثراء تستغل أي وقت فراغ تحيك للزبائن ، لأن المال الناتج من المحل

لن يكفي ، ولن يلبي احتياجات أبنائها .

وذات يوم . .

ذهبت لإحضار توفيق من المدرسة . .

وحال وصولهما الى المنزل شرعت ثراء بالصراخ من شدة الألم ، حيث فزع الطفلان

وركض توفيق ليعلم الجيران . .

فقام بعض الجيران بنقلها الى المستشفى ، وعندما علمت يارا بالأمر بقيت مع

الأبناء . .

ريم الرفاعي

وبعد دخولها إلى غرفة العمليات توقف صراخها ، ليعلوا صراخ آخر لطفلة

صغيرة . .

انجبتْ ثراء طفلة جميلة ، وقررت تسميتها "ليلى" .

وبعد الإجراءات الكاملة ، عادت ثراء إلى المنزل مع طفلتها . .

كانت ثراء تفتقد لأشخاص تأثرت بهم وبرحيلهم عنها ولم تكمل سعادتها بغيابهم.

"قال أبي وبعد كل حزن ، هناك سعادة ما بإنتظارنا ، لكن الحزن يشغل حيزًا حتى

في أجمل لحظات حياتنا .

وحين تفرض الوحدة وجودها لا أحد يستطيع إيقافها ، إلا انها تحلى بقليل من

الرحمة ، حيث تطبع بذاكرتنا صورهم الخالدة" .

حرصت ثراء على الإهتمام بليلى وكانتِ تعيرها اهتمام خاص ، فهي لم تنعم بحنان

الأب كإخوتها . .

ريم الرفاعي

إمرأة تبلغ من العمر تسعة وعشرون عامًا ، بدأت حياة جديدة مع ثلاثة أطفال وقررت أن تفعل المستحيل لأجلهم ولأجل تعليمهم ، و الأهم من ذلك تعويضهم قليلا عن حنان الأب.

هنا بدأت قصة كِفاح إمرأة أرملة مع أبنائها "وحيدة" ! . .

ريم الرفاعي

«الفصل الخامس عشر»

وبعد أن أنجبت طفلتها الرضيعة ، أصبحت المسؤولية الملقاة على كاهلها أكبر . .

حيث طلبت من يارا أن تقوم بتعليم توفيق طريق الذهاب إلى المدرسة ، بحكم انها لن تستطيع توصلته بعد الآن . .

حيث أنهت واجباتها المنزلية وأخذت تُحيك الملابس ، وعيناها تراقبان طفلتها . .

وصوت فيروز يهمس في أذانها .

"عندما نفقد من نحب . . تصبح عاداتهم السابقة جزء منّا ، ونقوم بممارستها دون وعي . . لتُذكّرنا بهم دائمًا" .

تعلّم توفيق الطريق الذي كان مألوف لديه مسبقًا ، وبما أن المدرسة لا تبعد كثيرًا عن المنزل . . كان من السهل عليه حفظ المكان .

وعند عودة يارا مساءًا ، أخذت تحدث ثراء :

ريم الرفاعي

ثراء ، هناك موضوع أودّ أن اخبرك به.

- تفضلي.

- أتذكرين سامر الذي يعمل معي أنا ومُعاذ ؟

- بالطبع ، فأنا من قمتُ بتوظيفه . . فهو يقطُن في المنزل المجاور.

- يودّ أن يزورنا .

- لماذا ؟ لم يحن موعد تسليم الراتب بعد ! .

- ليسَ لأجلِ الراتب ، يريد القدوم لأجلي.

- لم أفهم ! .

- لقد جاءت والدته معه اليوم إلى المحل وأخبرتني بأنها تبحث عن فتاةٍ لسامر ، ولقد

فهمتُ من كلامها بأنها تتكلم عني . .

ومن ثم بدأت تسألني عن عائلتي ، وقد قمتُ بإخبارها . .

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

ريم الرفاعي

- عندما علِمتْ بأنكِ صديقتي الوحيدة والمقرّبة ، قررت بأن تأتي غدًا لزيارتنا . .

وعلى الأرجح ستكلم معي بشأن الخطوبة ، ما رأيك ؟ وماذا أقول لها ؟

إني متوترة جدًا . .

- بالطبع وافقي ، سامر شاب مهذّب ومحترم . . وخلال معرفتي به أكتشفتُ ذلك.

- لكني لا أعرفه جيدًا ، كيف يمكنني الموافقة ؟ !

- ستعرفين عليه في فترة الخطوبة ، وإن اتفقتما تزوجا على الفور . .

كم أنا سعيدة لأجلك!

ريم الرفاعي

وفي صباح اليوم التالي "صباح العطلة" . .

استيقظ الجميع ، وذهبت ثراء لشراء مستلزمات المنزل ، بينما جلست يارا مع

الأبناء .

وحال وصول الضيفة ، قامت ثراء بفتح الباب :

أهلا وسهلا ، تفضلي.

وأخذت تعرّف عن نفسها :

لا أعلم إن أخبرتكِ يارا عني أم لا ، لكنني سأخبركِ شخصيًا .

أنا ماجدة ، أعيش بالمنزل المجاور ، وزوجي يعمل بمجال التجارة ولدي ابنٌ

وحيد . . وقد وصل لعمر مناسب للزواج . .

وبما أنه قد سبق وكلّمني عن يارا ، قررتُ التعرّف عليها . .

فهي فتاة محترمة ولطيفة ، لكني أردت ايضًا التعرف على صديقتها لكي أعرف عنها

أكثر .

- أهلاً وسهلاً بكِ ، هذا منزلكِ أيضًا .

ومن ثم أحضرت يارا الحلويات والعصير .

وسرعان ما بدأت ماجدة بالكلام :

أتيتُ إلى هنا بطلب ، وهو خطوبة يارا لسامر . . فما رأيكما بهذا الموضوع ؟

ثراء :

الأمر يعود ليارا .

ريم الرفاعي

شعرت يارا بالخجل ، إلا أنها وافقت بعد ذلك . .

وبعد عدة أيام طلبت ثراء من يارا أن تبقى مع الأبناء ريثما تعود . .

حيث انطلقت نحو البلدة ، وكان الجميع سعداء بقدومها .

فقامت بدعوتهم إلى حفلة خطوبة صديقتها الذي سيقام الأسبوع المقبل . .

كانت ثراء سعيدة لوجودها بين أهلها وجيرانها التي أمضت طفولتها معهم.

وبعد ذلك اتجهت إلى بيتهم القديم بعد أن انقضت مدة طويلة على رؤيته . .

"يراودنا شعور مختلف حينما نلمسُ أشياء من نحب ، حيث نشعر بأنهم موجودون أمامنا ويستطيعون النظر إلينا"

هذا ما شعرت به ثراء . .

رأت جميع الأشياء التي جعلتها تبكي وتضحك . .

فقد كان الفرح والحزن يملئان المكان . .

وعادت ثراء إلى المدينة حاملة معها الكثير من الذكريات . .

ريم الرفاعي

وسُرعان ما بدأت بالترتيب لحفلة يارا التي ستقام في منزلها .

وفي يوم الخطوبة . .

اجتمع جميع الضيوف في منزل ثراء . . حيثُ ظهرت يارا بشكل ملفت ورائع . .

وعندما حضرت المعلّمة إلى الحفلة قامت بتقديم التهاني ليارا وخطيبها . .

كانت يارا سعيدة جدًا لحضورها ، فطالما اعتبرتها بمثابة والدة لها .

ريم الرفاعي ...

« الفصل السادس عشر »

وبعد أربعة سنوات ..

انتقل كلٌ من يارا وسامر للعيش معًا في منزله ، وذلك بعد أن توقفت يارا عن العمل.

كان العام الماضي سيئ بالنسبة لها ..

حيث ذهبت يارا كالعادة إلى الميتم للقاء معلمتها ، لكنها لم تجدها ..

وحين سألت عنها مديرة الميتم ، قالت :

- كانت خسارة المعلمة نهى مؤلمة بالنسبة لنا ، فمنذ أسبوع تقريبًا انتقلت إلى رحمة الله.

حينها انصدمت يارا من الخبر ، وأخذت تسأل :

ريم الرفاعي

لكن كيف ؟ فأنا أقوم بزيارتها في كل أسبوع.

- منذُ اسبوع تقريبًا . . لم تأتي إلى الميتم على عكس عادتها ، فقمنا بالإتصال بها لنعرف سبب غيابها . .

لكن ابنتها أخبرتني بأن المنية قد وافتها صباح ذلك اليوم.

حزنت يارا جدًا لدى سماعها هذا الخبر ، وسألت المديرة :

أيمكنني أن أحصل على عنوان منزلها؟

- بالتأكيد . .

وحالما وصلتْ ، طرقت الباب . .

فتح لها رجل طاعن في السن :

من ؟

- هل يمكنني الدخول ؟

- من حضرتك؟ !

ريم الرفاعي

- كانت المعلمة نهى شخص مقرب بالنسبة لي..

- حسنًا، تفضلي.

دخلت يارا إلى المنزل، وقد وقعت عينها على صورة لمعلمتها معلقة على حائط الغرفة..

جلست وعرّفت عن نفسها وعن علاقتها بالمعلمة نهى..

وبعد أن سمع الرجل قصتها، ابتسم وقال:

نعم أخبرتني نهى عنكِ، إنها تعتبرك بمثابة ابنة لها.

شعرت يارا بالسعادة لما قال..

لكن سرعان ما دمعت عيناها وقالت:

هل لي بصورة لها؟

- بالطبع.

ومن ثم رحلت حاملة بقلبها حزن شديد وخاصةً بعدما رأت حالة زوج المعلمة المسكين.

ريم الرفاعي

كانت يارا تشعر بالراحة مع عائلتها الجديدة ، فلم تتوقع أنها قد تعيش بكنف حياة عائلية متماسكة.

أما من ناحية أخرى ، ثراء التي لا زالت تكدح لأجل أبنائها . .

فخلال الأربعة سنوات لم تذهب إلى منزل والديها قط ! . .

فلم يكن هناك متسع من الوقت ، فللمدرسة متطلبات لاتستطيع تأمينها إلا بالعمل الجاد . . حيث جعلت الغرفة الموجودة بجانب باب الخروج غرفة لقص الشعر . .

فهي على دراية كافية بهذا المجال . .

وهناك العديد من السيدات أحببن عملها وحرصن على زيارتها كلما دعى الأمر إلى ذلك ، لكنها لم تستمر بذلك لمدة طويلة ، لأنها لم تستطع الجمع بينه وبين الحياكة التي تطورت بها فيما بعد .

حيث كرست وقتها لهذا المجال ، وذلك بعد أن أصبح لديها الكثير من الزبائن . .

كما أنها أفتقدت ليارا ، فلم تعد تزورها كالسابق ، لكنها تمنت لها حياة سعيدة مع عائلتها .

ريم الرفاعي

وعندما حان موعد إحضار نتائج الطلاب ، وصل ربيع وتوفيق بجنبية أمل ، تعجبت

ثراء لحالهما :

مالذي حدث ؟ أين نتائجكما ؟

توفيق وربيع بوجهٍ شاحب :

ممتاز !.. وبدئا بالصراخ..

فرحت ثراء لأن أبنائها فعلوا ما لم تفعله هي ، وشعرت بالفخر بهما أمام الجميع ،

وكان هذا اليوم هو أسعد يوم في حياتها .

حيث دخلت غرفتها مسرعة ، وخرجت بأجمل الهدايا ، وليلى هي الأخرى كان

لها نصيب من هدايا والدتها .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل السابع عشر »

وبعد حوالي عشر سنوات . .

بلغت ثراء عامها الثالث والأربعين . .

لم تشعر بهذه السنين ، نتيجة التعب و العمل المستمر . .

حتى أنها لم تذهب لزيارة البلدة مطلقًا طيلة العشر سنوات .

كان إشتياقها للبلدة كبير ، لكن ظروفها أحالت بينها وبين ذلك .

توفيق بلغ عامه الواحد والعشرين ، وارتاد كلية الهندسة . . حبه للرياضيات والمسائل ، جعله يتخذ هذا القرار . .

أما ربيع ذو الثمانية عشر عامًا ، لا يزال في نهاية مرحلته الثانوية . .

ريم الرفاعي

وهو أيضًا من الطلبة المتفوقين ، حيث أراد أن يرتاد كلية الطب عقب انتهائه من

المدرسة . . فـ طب الأسنان كان يثير اهتمامه .

وأخيرًا !! ليلى . .ذات الأربعة عشر عامًا ،

ليست بذلك التفوق الذي كان لدى أخويها ، فهي تطمح لأن تصبح مصممة أزياء ،

ومن وجهة نظرها أن هذا التعليم لن يحقق حلمها . .

للجميع كان له أسلوب في العيش ، ولم يهتم أحد بالآخر . .

الجميع اهتم بنفسه وبما يريد . إلا ثراء لم تهتم لنفسها قط ، فلم يكن اهتمامها سوى

لأبنائها .

ريم الرفاعي

أما يارا فقد أصبح لديها طفلة تدعى " جميلة " ، وكلما سمحت لها الفرصة تقوم

بزيارة ثراء ، تمضيا بعض الوقت وتسترجعا أجمل الذكريات التي عاشتاها سويةً . .

وبعد أن انتهى العام الدراسي للطلبة ، كان للأبناء خطط مختلفة .

توفيق قرر الذهاب إلى الشاطئ مع أصدقائه ، والمكوث في المنتجع لمدة أسبوع ،

لهذا سيحتاج إلى المال . .

لذا أعطته ثراء المال دون تردد ، وكانت سعيدة بذلك .

أما ربيع وأصدقائه قرروا الذهاب برحلة إلى الريف . .فقامت ثراء بإعطائه

مستلزمات هذه الرحلة .

فلقد قامت بتجميع المال طيلة السنوات الماضية من أجل أبنائها ، لكي تستطيع

تأمين حياة الرفاهية لهم.

أما ليلى فقد قامت ثراء بأخذها إلى السوق ، ومن ثم ذهبا لزيارة يارا .

لكنّ ثراء افتقدت لأبنائها ، وكانت قلقة عليهما .

وعند عودتهما ، أخذت تعانقهما بشدّة ، وإذ بربيع يقول :

ما بكِ يا أمي؟ ! إنه مجرد أسبوع ! . .

- ماذا تقصدان بذلك ؟ ألا يحق لي أن أشتاق لكما ؟

توفيق :

لا ، ليس كذلك .

لكن ماذا لو غبنا عنكِ فترة طويلة ؟

- لن تفعلا ! . .

ريم الرفاعي

دعكما من هذا .. أخبراني عن رحلتكما؟

جلسوا وأخذ كل منهما يتكلم عن رحلته.

ثراء كانت من أكثر الناس سعادة، لأنها استطاعت إسعاد أبنائها وتوفير لهم هذه الراحة.

وعندما حان موعد ظهور النتائج، ذهب الأبناء لاستلامها ..

عاد ربيع ليخبر والدته بنتائج مذهلة قد حققها، وبأنه قد حصل على المرتبة الأولى.

شعرت ثراء بسعادة شديدة.. فها هي تحصد ثمرة تعبها طيلة هذه السنوات.

- أتعلمين يا أمي؟ لم أتوقع أن أحصل على هذه المرتبة.

ثراء بفخر كبير:

نعم لأنك أستحقيتها بجدارة، فأنا من رأتك تدرس طيلة اليوم، وكنت دائما ادعو لك ..

وها أنت ذا!

ربيع الرفاعي

- كم انتِ رائعة يا أمي !

لكن ماذا حصل مع ليلى ؟

- لم تأتي بعد ، أدعوا الله أن تحصل على نتيجة مشرّفة.

وبعد عشر دقائق ، طُرق الباب .

فسارع ربيع لفتح الباب ، وإذ ليلى بوجه غاضب تدخل.

ثراء بقلق :

ما بكِ ؟

- لقد رسبتُ في بضعة مواد .

ريم الرفاعي

أخذت ثراء تكلمها بغضب :

ماذا ؟ لمَ ؟ ألم تذاكري جيدًا ؟

العام الماضي تحصلتِ على ذات النتيجة ، ألم تتحسني قليلا؟ . . بعد كل ما تحدثنا به!

- لاتهمني هذه الشهادة وما تحتويه .

فأنا أريد أن أصبح مصممة أزياء .

- ماذا ؟ ! . .

وإذ يطرق الباب . .

ثراء :

أنت تبجلك الأسبوع المقبل ، صحيح ؟

- نعم . . فالجامعة دائما ما تتأخر .

لكن ماذا حصل بكما ؟

ربيع :

- خمن ما الذي حدث ؟

لقد تحصلت على المرتبة الأولى على مستوى مدارس المدينة .

- هل فعلت ؟ !

كم أنا فخور بك . تعال وعانقني .

ريم الرفاعي

وأكمل :

لقد علمت من أصدقائي أن من يحصل عليها يحق له منحة دراسية لبلد أوروبي .

- نعم . أعلم ذلك لهذا أنا متحمس جدًا .

ثـراء :

ما هذه المنحة ؟

- لقد نسيت أن أخبرك بأن هذه المنحة من التعليم ، تنص على ذهاب الطالب إلى

بلد أوروبي للدراسة هناك .

- لكنك لم تخبرني بهذا .

ولست موافقة على رحيلك .

وإذ بربيع يهمس لتوفيق بأن يتحدث إليها . .

توفيق :

أمي ، إنها فرصة ممتازة .

ولا أحد يرفض مثل هذه الفرصة .

ريم الرفاعي

- هناك العديد من الجامعات هنا ، لا داعي لذهابه بعيدًا . ومن ثم ألن يحتاج إلى المال ؟ من أين سأحضر له هذا المبلغ الكبير؟

ربيع :

هيا يا أمي . . فكري بعقلك قليلاً . كيف بإمكاني الرفض ؟

إنه حلم بالنسبة لي ، سأدرس بضعة سنوات ومن ثم سأعود .

ولست غبيًا للتخلي عن هذا العرض ، أليس كذلك ؟

- ماذا ؟ بضعة سنوات ؟ من أين سأحضر المال ؟

لن تذهب وقد اتخذت قراري .

- لن أحتاج إلى المال ، هم من سيتكفلون بذلك .

- لقد قلت بأني لست موافقة . .

اسمعي يا أمي سأذهب . . ولن يستطيع أحد إيقافي .

ومن ثم غادر المنزل .

ريم الرفاعي

- ربيع ، انتظر !.. تعال إلى هنا .

لكن دون جدوى !.

- لقد كرّست حياتي لتحقيق أحلامكم ، وأنتم في المقابل تريدون مخالفتي!.

توفيق :

لديه كامل الحق يا أمي.

وأنتي يا ليلى . ماذا حدث معك ؟

وإذ بها ترمي بورقة النتائج وتدخل غرفتها غاضبة.

- ماذا حدث لها ؟

- كالعادة!.

- ماذا؟.. انتي من يجب عليكي أن تغضبي .

- نعم .. سأدخل لأتكلم معها .

دخلت ووجدتها جالسة على سريرها .

ريم الرفاعي

فأخذت تكلمها بود :

ليلى ، تصميم الأزياء شيء جميل ولا تنسي بأني اعمل بذات المجال.

- لا ، أنا لا أريد أن أصبح مثلك . أريد أن أفتح محلي الخاص ، وأن أقوم بتصميم كافة أنواع الملابس.

أريد أن يعرفني العالم بأسره ، هذا هو تصميم الأزياء .. ما تعملين به يُدعى "حياكة" .

- هذا المجال الذي تكلمين عنه ، هو من جعلك تعيشين هذه الحياة . هل تسخرين منه الآن ؟

اسمعيني يا بنيتي ، هناك الكثير من الناس الذين يطمحون ليصبحون مصممين ، لكن ينبغي عليكي أن تكوني مميزة عن البقية .

- أخبريني ، كيف ؟

- عندما تتعلمين وتتثقفين تصبحين مميزة ، ويصبح مجالك أوسع مما تطمحين تصبحين المصممة المثقفة ليلى . انظري ما أجمل هذه الجملة وأعمقها ! .

ريم الرفاعي

- حسنًا . .

لكني الآن حصلت على نتيجة سيئة !

- لا بأس ، لقد حصلتي عليها لأنك لم ترغبي بذلك ، لكن الآن لديك الرغبة الكافية لكي تكوني متفوقة ، وتستطيعين التعويض في السنين المقبلة .

اقنعت ثراء ليلى ، والأهم من ذلك جعلتها ترغب بالدراسة وتكافح لتحصل على شهادة تليق بها .

أما ربيع لم يعد طيلة الليل ، وبقيت ثراء قلقة بشأنه.

وفي صباح اليوم التالي طلبت ثراء من توفيق أن يقوم بإحضاره لأنها كانت على يقين بأنه يعلم مكانه.

اتصل توفيق بربيع :

ربيع عد إلى هنا حالاً . . فلقد وافقت والدتك على ذهابك.

ومن ثم أغلق سماعة الهاتف.

- لم أخبرته بأنني موافقة ، متى وافقت؟

ريم الرفاعي

- أعلم بأنك لم توافقي ، لكن عليكي التفكير بالأمر، ابنك أم عنادك ؟

اضطرت ثراء إلى الموافقة خوفًا على ربيع ، وخوفًا من أن تفقده بعد ذلك .

وعندما وصل ربيع إلى المنزل .

أخذت ثراء تسأله :

أين كنت طيلة الليل ؟

- كنت في منزل صديقي ، وقبل مجيئي إلى هنا . . ذهبت إلى المؤسسة الخاصة بالتعليم وقد أخبروني بأن بعد شهر تقريبًا سيكون موعد سفري إلى ألمانيا .

رسمت ثراء على وجهها ابتسامة كاذبة :

حسنًا يا طفلي ، اذهب وابحث عن مستقبلك . .

- بالطبع سأفعل يا أمي ، لا تقلقي علي.

"نضطر في بعض الأحيان إلى الإخضاع لقرارات من نحب حتى وإن كانت تؤذينا ، لأنهم سبق واختاروا مصيرهم بعيدًا عنا . .

ربيع الرفاعي

لكننا نبقى دائمًا على أمل لقاءهم من جديد !"

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الثامن عشر »

اليوم هو يومٌ مهم بالنسبة لتوفيق . .

حيثُ تأنق الجميع ، وانطلقوا إلى الجامعة لحضور حفل تخرج توفيق من كلية الهندسة .

لكن كان ينقصهم ربيع الذي أصبح الآن في ألمانيا .

ربيع الرفاعي

وعندما وصلوا إلى الحفل . . التقى توفيق بأصدقائه الذين حضروا برفقة أمهاتهم ، حيثُ أخذ يُلقي التحية على الأمهات ، لكنه سرعان ما أهمل والدته . . وإذ بأحد الأصدقاء :

ألن تعرّفنا على والدتك يا توفيق ؟

أجاب بتوتر :

بالطبع !

أمي تعالي! . .

هذه أمي وتلك هي شقيقتي .

أمي ها هم أصدقائي.

وإذ بأحد الأصدقاء يقول :

لقد اعتقدتُ لوهلة أن لديك شقيقتان . .

أدامها الله لك وحفظها .

توفيق بسعادة وفخر :

أرأيت؟ الجمال في جيناتنا .

شعرت ثراء بسعادة لما سمعت ، فأخذ يكمل :

انظري هنا ، انظري إلى هذه الشهادة . . هذه ليست مجرّد ورقة! . .

إنها بمثابة حلم يتحقق ، ألم تتمني ان يبدأ اسم ابنك بحرف الميم ؟!

ثراء مستغربة :

ريم الرفاعي

- عفوًا؟!

حينها توتر توفيق . .

الشاب :

كنتُ أقصد بحرف الميم "مهندس" ، اعلم بأني اتكلم احيانًا بطريقة غريبة وغير مفهومة .

تخيلي معي (المهندس توفيق مؤيد) .

- نعم . .

وأخذت تكلم توفيق أمام الجميع :

توفيق ، لم احضر لك اليوم هدية النجاح ، تستطيع أن تطلب ما شئت . .وسأحضره لك بالتأكيد .

توفيق بغضب وبصوتٍ منخفض :

وهل هذا هو الوقت المناسب لهذا الكلام ؟

ريم الرفاعي

شعرت ثراء باليأس لما قال ، بعد أن كانت مستعدة لتقديم حياتها لأجله.

وبعد انتهاء الحفل عاد الجميع إلى المنزل سعيد ، إلا توفيق. .

وحال وصولهم إلى المنزل ، أخذ يتكلم بغضب :

لقد أحرجتني اليوم ، ألم يكن باستطاعتك أن تتجاهلي كلامه وتجاريه ؟ . .

وكنتي تتكلمين عن الهدية أمام الجميع ، ألم يكن بوسعك الانتظار ريثما نعود إلى المنزل؟

ولم أعد طفل الآن لتحضري لي دمية او قطعة ملابس ، لقد نضجت وعليكي تقبل الأمر. .

فلقد انتهيت الآن من الجامعة ، ماذا برأيك سأفعل بعد ذلك ؟ هل أجلس معك هنا وابدأ بالحياكة ، أم أن علي مساعدتك بالطهو ؟! . .

احتاج الآن لهدايا أكبر مما توقعين ، أريد مالاً لأبدأ بالعمل وأفتتح مكتبي الخاص.

هل ستستطيعين تدبير المال ؟ لا ، أليس كذلك؟ .

لو كان والدي على قيد الحياة لفعل ذلك . .

ريم الرفاعي

ومن ثم دخل غرفته واغلق الباب بقوة.

لكن ثراء لم تتفوه بأي كلمة..

الصمت أحاط المكان ولم يسمع سوى صوت اجهاش ثراء بالبكاء.

وبدأت تحدث نفسها :

هل أنا سيئة كما يقول ولا استطيع تحقيق أحلام أبنائي ؟

هل لو كان مؤيد هنا لكان الأمر أسهل ؟

أسئلة مستمرة دون أجوبة ، وشعور بالذنب دون خطأ !!..

"عندما يتوجه الينا اصبع الإتهام من اقرب الناس إلينا ، نصدق ذلك ونعتقد بأنهم على حق ، ربما بسبب الثقة التي نشعرها تجاههم والتي تكون بحجم أكبر من تلك التي نكنها لأنفسنا ..

وعندما نقتنع بهذا ، نقوم بوضع اللوم على انفسنا"

لامت ثراء نفسها ، وشعرت بأن عليها تحقيق حلم ابنها ، فبدأت تفكر بطريقة لتأمين المبلغ المطلوب ، وسرعان ما وجدت الحل.

ريم الرفاعي

وفي صباح اليوم التالي انطلقت إلى البلدة . .

حيث دخلت لرؤية المنزل للمرة الأخيرة . . .

أخذت تتفقد كل شيء . .

ووضعت الأشياء الثمينة بصندوقٍ خشبي.

وذهبت إلى المكتب لبيع المنزل ، ولحسن الحظ وجدت من يشتريه بسرعة . .

وعادت إلى المنزل مع المال والصندوق . .

وحال وصولها إلى المنزل ، سألها توفيق :

أين كنتِ طيلة اليوم ؟

وما هذا الصندوق ؟

- امسك هذا من يدي.

انبهر توفيق مما رأى . .

ثم قال :

من أين أحضرتِ كل هذا المال؟!

- لا داعي لأن تسأل ، فلقد استطعت تأمينه .

انتم الأهم بالنسبة لي.

- نعم يا أمي، بالتأكيد ! . .

أنتي عظيمة .

لكنها كانت تشعر بالذنب لأنها تخلت عن المنزل الذي عاشت فيه أجمل ذكرياتها ،

كما وتمنت أن يسامحها والداها على ما فعلت . .

أخذ توفيق يسأل :

ما هذا الصندوق يا أمي ؟

- بضعة أغراض ، سبق واحتفظت بهم في منزل يارا .

"في بعض الأحيان ، نضحي بشيء ثمين لأشخاص قد لا يقدرون قيمته .

لكننا نفعل لأنهم أثمن من أي شيء آخر" .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل التاسع عشر »

اعتادَ ربيع ان يتصل كل شهر تقريبًا . .

لكن هذه المرة تأخر باتصاله ، كما وقد حان وقت عودته بعد أن انهى دراسته في ألمانيا .

وبعد مدة على انقطاعه ، رنَّ هاتف المنزل :

- توفيق !

- ربيع ! . . هذا أنت؟ ! . . كيف حالك ؟

- بخير وسعيد هنا ، كيف حالكم أنتم ؟

- بخير وننتظر عودتك . .

- في الحقيقة هذا هو سبب اتصالي . .

- ما الذي حصل؟ . . اخبرني.

ربيع الرفاعي

- اسمعني جيدًا . .

لن أعود ، فلقد تزوجت هنا ، وحصلت على الجنسية أيضًا وحياتي هنا ممتازة . .

هل أنا غبي لأعود بعد هذا؟

- ماذا قلت ؟ ودون أن تخبر أحدًا ! . .

كيف يمكنك فعل هذا ؟

كانت ثراء متوترة وقلقة حيال ردة فعل توفيق.

- هذا ما حدث . . وتم الأمر ، سأفتتح عيادتي هنا . .

وها أنا أخبرك.

- حسنًا تكلم مع والدتك الآن.

- انتظر ، لا أريد أن أكلمها ، لأنها سوف تقوم بوعظي وإلقاء محاضراتها الغبية عليّ . لذلك أخبرها انت بطريقتك .

أخذ توفيق يتكلم ضاحكًا :

ريم الرفاعي

حسنًا ، لا تقلق . اتصل بنا دائمًا . . الوداع.

ثراء بقلق :

لَم لم يكلمني ؟

- أمي ، ربيع لن يعود إلى هنا ، يريد أن يُتابع حياته هناك.

- ماذا ؟

- نعم ونسيت ان اخبرك ايضًا ، لقد تزوج وحصل على الجنسية الألمانية .

- ماالذي تقوله؟

اتصل به الآن ، سأنهي هذه المهزلة .

- لا يريد التكلم معك ، لأنه يعلم ما ستقولين .

- لم انت غير متفاجئ ؟ أسعيد بما فعل ؟

- لَم أحزن ؟ سعيد لسعادته ، هناك وجد حياته فلمَ لا أبارك له وأهنئه؟ ! ،

وعليكي فعل ذلك ايضًا .

ريم الرفاعي

- لكن ماذا عني؟ لمَ لم يخبرني ؟ ألستُ أمه؟ !

- أمي لا تتصرفي بأنانية ، دعيه يتحرر من قيودك.

هو إنسان ناضج ويعلم تمامًا ما يريد . . وإن كنتِ تحبينه ستسعدين لأجله.

حينها دخلت إلى غرفتها . .

أرادت أن ترشده إلى الدرب الصحيح ، لكنه سلب منها هذا الحق أيضًا فلم يكن بوسعها سوى البكاء . . ففيه تجد الخلاص.

ومن ناحية أخرى ليلى التي أرادت أن تفتتح محلها الخاص ، حيث أخبرت والدتها بذلك . . لكن ثراء طلبت منها أن تنتظر ريثما تستطيع تأمين المال.

ريم الرفاعى

أخذت ثراء تعمل جاهدة رغم ضعف بصرها ، إلا أنها كثّفت العمل لتستطيع تأمين المبلغ بسرعة.

وعندما جاءت يارا لزيارتها أخذت تحدثها قائلة :

ما بك يا ثراء ؟ لم تبدين هكذا؟

- كيف أبدو ؟

- تبدين مرهقة ، ألم تنامي ليلة أمس؟

- لا ، فلقد كنت أحاول أن انهي العمل بسرعة.

- لا تنهكي نفسك ، تستطيعين تأجيل موعد التسليم.

فأخذت ثراء تخبرها بكل شيء . .

- اهدأي . . أستطيع أن أفهمك ، لكن ليس عليكي أن تُجهدي نفسك إلى هذه الدرجة ، وحتى لو تأخرتي عليها قليلاً ، لا بأس . .

اهتمي بنفسك أولاً ومن ثم بأبائك . .فقد حان الوقت ليهتموا بك الآن وليس العكس.

- لن أشعر بالراحة إلا إذا حققت لهم ما يريدون . .

- حسنًا افعلي ما شئتي ، لكن لا تدلليهم كثيرًا ، لأنهم سيصبحون غير مبالين ، ولن تكونين سعيدة حينذاك . .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل العشرون »

وخلال هذه السنين ، تزوج توفيق من فتاة تُدعى " سالي " . .

وهي ابنة لتاجر غني ، قد سبق وقام توفيق بالعمل معهما ، وبعد لقاءات عديدة

طلب من والدته أن تذهب إلى منزلها لطلب الزواج . .

كانت معتادة على أن تمضي العطلات في منزل والدها ، لذا قرر هو أيضًا أن يبقى

في منزل والدته ليمضي بعض الوقت مع عائلته .

ومع حلول المساء . .

اتصل ربيع بتوفيق ليخبره عن حاجته الماسّة للمال ، وعندما سأله عن السبب

قال :

أنا مُقدم على مشروع بناء مستشفى ، ولن تستطيع زوجتي دفع المال وحدها ، ثم

أن أصدقائي شركاء بالمشروع وقد قاموا بدفع المبلغ المترتب عليهم ولم يبقى

ريم الرفاعي

سواي! . .

- مالذي تقوله؟ !

أنت تعلم بوضعنا هنا . .

كيف تستطيع أن تطلب المال هكذا دون مبالاة؟ كم أنت أناني!

وانتهى الحديث بينهما بغضب الطرفين ، وبعد عدة دقائق اتصل ربيع مرة أخرى . .

أجاب توفيق :

ماذا الآن ؟

- لقد وجدتُ الحل.

- ما هو ؟

- قم ببيع منزلنا ومحلنا .

- هل جننت ؟ أين ستذهب والدتك وشقيقتك؟

وعن أي محل تتحدث؟ أنت تعلم بأن ذلك المحل هو من يكفي قوتهما ، كيف

بإمكانك أن تكون غبي لهذه الدرجة؟ !

ريم الرفاعي

- سيكون كل شيء على ما يرام ، نقوم ببيع المنزل ونتقاسمه نحن الثلاث . .

- وماذا عن والدتك أيها الذكي؟

- يوم برفقتك ويوم برفقة ليلى.

- ماذا؟ . . أنت حتمًا تريد لي الطلاق! . .

زوجتي فتاة راقية ولن تستطيع تحمل والدتك .

- حسنًا . .ماذا عن ليلى؟

لا أعلم بشأنها ، سأتكلم معها وأخبرك.

ريم الرفاعي

وعندها صاح :

ليلى ! . .تعالي الى هنا . .

- ما الأمر؟ !

- أغلقي الباب.

أسمعي. .ألم ترغبي بأن تفتحي المحل الخاص بك ؟

- لا ، لم يعد هناك فائدة ، فلقد أصبحت الآن في الخامسة والثلاثون . . لقد تأخر الوقت .

- أيتها البلهاء ، لا شيء ينتهي بخصوص تحقيق الأحلام ، هذا حلمك . . دافعي عنه .

- لكن كيف ؟ أنتَ أدرى بوضعنا . .

- وماذا لو أخبرتك بأن الحل موجود ؟

ومن ثم أخذ يخبرها عن فكرة ربيع . .

فتحمست للفكرة ووافقت بسرعة . .

- لكن هناك أمرًا ، والدتك ستبقى برفقتك .

- بالتأكيد لا . . لمَ لا تبقى برفقتك؟

أنا أريد تأسيس حياة جديدة ، ولازلت بخطواتي الأولى .

لا . . أفضل البقاء على حالي على البدء ببداية فاشلة .

- إذًا لم يعد لدينا إلا حل وحيد ، إرسالها إلى ألمانيا .

ريم الرفاعي

- كم أنت عبقري يا أخي ! حل ممتاز.

سارع توفيق بالإتصال بربيع ، وأخذ يتكلم:

اسمع يا ربيع لقد وافقت ليلى على الموضوع بشرط أن نرسل والدتك إلى ألمانيا .

- لابد بأنك تمزح ؟

- أنا جاد . .فهذا هو الحل الأنسب.

- يبدو بأنك نسيت . . فأنا ببلد أوروبي ، ولدي طفل الآن ! . .

مسئوليتي أصبحت أكبر من ذي قبل.

أتريد مني أن أحضر والدتك إلى هنا ؟ أنت تعلم بأن والدتك تجد صعوبة في كل

شيء ، حتى أنها ليست معتادة على هذا المكان ، ولن تتأقلم! .

ثم أنني دائما ما أكون بالعمل ، من سيهتم بها ؟

انسى الموضوع ، فلنلغ كل ما اتفقنا عليه.

- لن نلغ شيء ، سيتم الموضوع . .

وسنجد حلا.

ريم الرفاعي

بدأ الجميع بالتفكير بحل مناسب ..

حينها ذهبت ثراء إلى غرفة ليلى ، وجلست إلى جانبها :

اسمعي يا ليلى ، لا تعتقدي بأني نسيت حلمك ..

- سيتحقق حلمي حينما أصبح مسنة ، حينها أستطيع أن أصبح مصممة أليس كذلك؟

- لقد فعلت ما بوسعي .. فلقدت قمتُ بإدخار مبلغ من المال ، بالإضافة إلى عملي في الحياكة. وهذا المبلغ الذي يتوفر معي الآن .. خذيه ، تستطيعين أستئجار محل ان أردتي ..

- كفى يا أمي ، الكلام لن يفيد بشيء ، لقد أكتفيت من سماع ذات الكلام دائما ، خذيه أنتي وأحضري به بعض الخرز و البريق.

"قد يكون الإنسان أناني وجشع في بعض الأحيان ، ولا يفكر سوى بنفسه ، يستطيع أن يؤذي الناس ببساطة ، دون الإحساس بقليل من الذنب ! "

ريم الرفاعي

وفي نفس الوقت ربيع الذي كان يفكر طيلة الليل.. إلى أن وجد الحل!

رفع سماعة الهاتف مباشرة :

لقد وجدت الحل.

- ما هو؟ أخبرني ..

- اسمعني جيدًا ، لقد فكرت بأن نستأجر لها منزل ، لكن من سيقوم بدفع الإيجار؟

بالطبع لا أحد .

- نعم.

- لذلك الحل الوحيد والأخير هو نقل والدتك إلى دار المسنين.

- لم أتوقع منك ذلك! .

ثم قام بإغلاق سماعة الهاتف.

ليلى :

ما بك ؟ لم انت منزعج هكذا ؟

ريم الرفاعي

- يريد مني أن أضع والدتك في دار للمسنين!

- حله يناسب الجميع ، وهناك والدتك ستكون سعيدة . .

آأخبرك سرّ ؟ لقد فكرتُ بذلك أيضًا .

- كيف يمكننا فعل هذا بها ؟

- حسنًا ، خذها أنت إلى منزلك واهتم بها .

- ولِمَ أنا؟

- أنت من لا يريد وليس نحن! .

أخذ توفيق يفكر ، ثم اتصل بربيع :

موافق . . لكني لن أتكلم معها بهذا الشأن .

ليلى :

أنا سأخبرها .

- حسنًا ، ليلى ستقوم بإخبارها ، وسأذهب غدًا لأبحث عن دار جيدة .

ريم الرفاعي

- افعل ذلك بسرعة لو سمحت.

ذهبت ليلى على الفور لإخبار والدتها . .

وعندما فتحت باب الغرفة وجدتها نائمة.

"بعض الأشخاص تفتقد للرحمة والعاطفة ، لذا يصعب عليهم فهم المبادئ والقيم الإنسانية ، فلا نجد بداخلهم سوى الكره والضغينة حتى تجاه من قدم لهم يد المساعدة يومًا ! ".

ريم الرفاعي

•••

«الفصل الواحد والعشرون»

وفي صباح اليوم التالي . .

استيقظت ثراء كعادتها ، وكان التعب مُسيطرٌ عليها . .

بدأت بتحضير الفطور ، وفور انتهائها ايقظت توفيق وليلى . .

أخذ توفيق يكلم ليلى :

ليلى.. أخبريها بطريقة ملائمة ودون وقاحة ، فأنا أعرفك جيّداً .

ليلى ضاحكة :

حسنًا أيها الحنون.

خرجا سويّة لتناول الفطور ، وأخذت ليلى تقول :

ما ألذ هذا البيض!

ريم الرفاعي

ثم تابعت :

أمي ، هناك موضوع أود التحدث به معك.

توفيق وبصوتٍ منخفض :

تكلمي برفق.

- بعد أن أصبح لدى ربيع زوجة وطفل ، قرر أن يأسس مستشفى . .

ولهذا يحتاج إلى مبلغ كبير من المال.

وبالإضافة إلى ذلك اعلم بأنكِ لن تستطيعين تأمين المبلغ المناسب لي . .

ريم الرفاعي

فقاطعتها ثراء :

انتظري قليلاً بعد ، فلقد اقتربت من تجميعه . .

- كم مرة ستخبريني بذلك ؟ لن تستطيعين ! وأنا لا ألومك لأن المبلغ كبير . -

وماذا عن توفيق ؟ فهو ايضاً يريد ادارة مشروع جديد وسيحتاج إلى المال . .

لستِ مضطرة الى حمل هذا العبء وحدك ! .

لذلك وبعد نقاش طويل دار بيني وبين اخوتي ، لم نجد إلا حل واحد ، وهو أن نبيع

المنزل ومحل الملابس.

- تريدون بيع المنزل والمحل ؟ أين سنذهب ؟

لقد أخبرتك بأني أستطيع تأمين المبلغ. .

- أمي. . أنتِ لن تستطيعين تأمين أي شيء من الحياكة ، أحلامنا كبيرة ونريد الكثير

من المال . .لقد حسمنا الأمر وسنبيع.

- قررتم اذًا ! وما الداعي لإخباري؟

- أمي توقفي أرجوكِ ، إنّهُ أمر جاد.

- ولأنه أمر جاد ، أتكلم هكذا .

منزل والدكما لن يباع طالما أنا حيّة أرزق.

- وماذا إن أخبرتك بأننا نريد نصيبنا من المنزل والمحل؟

- بُنَي تتكلمين بوقاحة!

- ليس من الوقاحة أن اطالب بحقي.

ريم الرفاعي

- حسنًا ، لنفترض بأننا قمنا ببيع المنزل . .

ماذا بعد؟

- لقد فكرنا بهذا الموضوع ايضًا .

أنا سأستأجر منزل لي ، وسيأخذ كل منا نصيبه . .

لا داعي للقلق.

- وماذا عني ؟ أم أنكم لم تفكرون بي أيضًا ؟

- بلى فكرنا . .

حينها قاطع توفيق الحديث خوفًا من طريقة كلام ليلى :

كنا سنرسلك إلى ألمانيا لكن ربيع ونيكول يعملان طيلة اليوم ،

وليلى ستعمل في محلها ، وانا أيضًا سأعمل على مشروعي الجديد ، ولن نستطيع

الإهتمام بكِ كما ينبغي . .

لذلك سأذهب اليوم لرؤية دار مناسبة . .سيهتمون بكِ هناك وستشعرين بالراحة.

ريم الرفاعي

ثراء :

لم أفهم!

ليلى :

دار للمسنين ، هناك ستكونين أصدقاء . .

حينها نهضت ثراء وذهبت الى غرفتها وأغلقت بابها وجلست مخذولة . .

بدأت ثراء بحزم أمتعتها ، وقررت المغادرة دون أن تسبب المشاكل لأحد .

وعندما طُرق الباب . . فتحت ليلى لتجد يارا أمامها .

ألقت السلام عليها وسألتها :

أين أخاك ؟

ليلى بلؤم :

ذهب ولا اعرف الى أين.

- حسنًا ، أين والدتك ؟

ريم الرفاعي

- في غرفتها ، سأخبرها أنك هنا .

- لا داعي لذلك ، سأدخل أنا لأفاجئها بحضوري.

دخلت يارا ، وإذ تصطدم بجمال ثراء :

أين ذاهبة يا ثراء؟

ثراء . . أجيبي ما بك؟ !

- هل أجبرتك جميلة على الرحيل يومًا ؟

- لا ، لمَ عليها فعل ذلك؟

حينها قامت ثراء بإخبارها بكل ما حدث . .

- تعالي معي ، منزل شقيقتك بإنتظارك .

- لا أبدًا ، ولا تحاولي معي.

- ألم نكن بجانب بعضنا في السراء والضراء؟ لم ترفضين الآن؟

- نعم ! لكني حسمت أمري ، وسأذهب إلى هناك .

ريم الرفاعي

ورغم الإقناع الطويل من قِبل يارا ، إلا أن ثراء رفضت تمامًا ، لأنها لم ترد أن تزعج احدًا أو ان تكون عبء على غيرها بعد الآن.

خرجت يارا من غرفة ثراء وهي على وشك المغادرة فوجدت ليلى في طريقها :

ألا تخجلون من أنفسكم ؟ انسيتوا أن هذه والدتكم ؟

- هذا الموضوع ليس من شأنك ، اهتمي بأمورك.

- أنتِ فتاة وقحة ، ولا تستحقين والدة طيبة كثراء.

وخرجت يارا وهي منزعجة.

وعندما عاد توفيق ، أخبر ليلى بأنه قام بجميع الإجراءات اللازمة ، وهم مستعدون لإستقبالها .

وعندما سألته عن المحل أجاب :

لقد وضعته في البيع ، وقد يتصلون بي في أية لحظة..

نهار طويل مليء بالظلمة ، وليل أطول مليء بالحزن ، عاشت ثراء هذا اليوم وتذكرت أهلها وكيف كانت معاملتها لهم.

ريم الرفاعي

لم يخطر ببالها يومًا أنها ستندم على انجابها لهؤلاء الوحوش ، لكنها ايضًا خشيت أن تشتاق لهم .. لذا قامت بأخذ صورة لكل واحد منهم.

"قد تكون ثقتنا تجاه من نحب عمياء ، نعاملهم بحب وصدق وننتظر منهم ذلك في المقابل ، لكن حين يحدث العكس ، نندم لغفلتنا عنهم ولثقتنا تجاههم" .

رحل القمر احترامًا للشمس ، ليفسح لها الطريق ..

أشرقت الشمس لتقوم بواجبها وتنير العالم بنورها ، لكنها لم تقم بواجبها مع ثراء بل كانت عبء عليها ، وقاسية عليها وكأنها وحش يريد اختطافها من بين ابنائها ..

استيقظت ليلى وبدأت بتحضير نفسها لنقل والدتها بفخر ..

لكنّ ثراء لم تنم طيلة الليل وكانت قد ارتدت ملابسها منذ ليلة أمس.

وعندما وصل توفيق ، حمل حقائب والدته بخجل وعاد إلى السيارة ..

وحين خرجت ثراء .. تأملت كل شيء في المنزل ، وذهبت دون أن تنظر خلفها .

ريم الرفاعي

وفي طريقهم إلى الدار .. مرّوا بجانب مدرسة توفيق ، فتذكرت كيف كان يقوم مؤيد بإيصاله كلّ يوم.

كان قلبها ينبض بسرعة .. متوترة وخائفة ، لكنها قامت بإخفاء ذلك بداخلها محاولة أن تكون طبيعية.

وعندما وصلوا ..

لم ترد الخروج من السيارة مطلقًا ، تمنت الموت على أن تذهب لمكان سيبعدها عن ابنائها .. ممسكة بباب السيارة خشية من فقدانهم.

لكنها اظهرت القوة والشجاعة بداخلها وخرجت بثقة متجهة مباشرة نحو الدار ، فلحق بها توفيق وليلى ليودعاها ..

توفيق قام بإخبار الدار عن والدته التي سبق وحدثهم بشأنها ..

وأخذ يكلم والدته :

لا تحزني يا أمي ، ولا تكرهينني ايضًا .. اتمنى من قلبي أن تفهمي ما أمرّ به.

أظهرت ثراء ابتسامة بريئة وراءها مئات السخريات.. وأخذ توفيق يعانقها ويودعها لم تستطع ثراء تمالك أعصابها فأخذت تعانق ابنها الأكبر بقوة وانهمرت الدموع من

ريم الرفاعي

عينيها .

دمعت عين توفيق وخرج مسرعًا ، أخذت ليلى تعانق والدتها و ثراء تذرف دموع

الألم ، الغضب ، الفراق ، والخذلان . .

تركت ثراء ليلى وقاموا أصحاب المكان بأخذها إلى غرفتها التي ستشارك بها مع

سيدات أخريات .

كان المكان يبدو وكأنه منزل قديم ، مفتوح السقف . .

وكانت الأشجار تملئ المكان. . بالإضافة إلى نافورة مياه تتوسطه ، وعدة غُرف .

لكنّ ثراء كانت مصدومة لوجود أناس كثر هناك ، حيث أخذت تفكر بالأبناء

الذين رموا بوالديهم في هذا المكان.

جلست على سريرها وحيدة ، وكان الجميع ينظر إليها وهي تبكي ، إلى ان جاءت

امرأة وقالت :

لا تقلقي ، فجميعنا مررنا بذات الشعور حال دخولنا إلى هنا .

وأكملت مبتسمة :

ريم الرفاعي

أنا اسمي فاتنة ، وأنتِ؟

- ثراء .

أصطحبت فاتنة ثراء إلى خارج الغرفة وجلستا .. ثم أخذت تحدثها :

كيف وصلتِ إلى هنا ؟

فأخذت ثراء تخبرها قصتها ..

ثم قالت :

ماذا عنكِ ؟

- لستُ لوحدي ، زوجي هنا أيضًا ..

وقد اعتدنا الأمر ، فنحنُ هنا منذُ أربعة أشهر.

في الحقيقة لدينا ابنٌ وحيد .. وعندما أصبح مسؤول عن نفسه ، لم يعد بحاجةٍ إلينا .. ومنذُ ذلك الوقت لم نسمع عنه أي شيءٍ ، لقد وجد حياته بعيدًا عنا .

لكني لن أكذب عليكِ فأنا أشتاقُ إليهِ كثيرًا ..

ريم الرفاعي

وأخذت تبكي ..

ثم قالت :

أمِنَ العدلِ أن يرمي الأبناء بوالديهم ؟ ..

أخبريني ، ماذا عن التعب الذي بذلناه ؟

نحنُ لم نفعل شيء من هذا القبيل مع والدينا ، بل على العكس ..

احترمناهم وقدرناهم وكنا خير ابناء لهم ..

حتى بعد وفاتهم .. مازلنا نشعر بوجودهم بيننا .

شعرت ثراء بالحزن لحالة المرأة المسكينة التي تشبه حالتها .

وبعد عدة شهور ..

اعتادت ثراء حياتها في الدار .

حيث يقوم توفيق بزيارتها كلما سمحت له الفرصة بذلك ..

ريم الرفاعي

أما ليلى فقد قامت بزيارتها مرتين ، ومن ثم لم تعد تهتم.

لكن ذات يوم طلبت ثراء من توفيق أن يأخذها إلى البلدة ، فتعجب توفيق من طلبها . .

إلا انه طلب الاذن من الدار . . ووافقوا على طلبه.

وحين وصلا إلى هناك . .

سارع أهالي البلدة للترحيب بها ، سعداء بوجودها بينهم ،

ومن ثم اتجهت نحو منزلهم القديم ، والذي اصبح فيما بعد "مطعم" . .

حينها دخلت ، وجلست على الطاولة.

سأل توفيق والدته :

من هؤلاء الناس ؟ ولم أصررتِ على القدوم إلى هنا ؟

- هنا نشأتُ وتربيت ، وهذا المطعم كان منزلي.

- حقًا؟

ريم الرفاعي

- نعم.. فلقد كنت بالأمس اجلس هناك برفقة جدتك، وكنت انظر إليها عندما

كانت تحيك الملابس، كنتُ أحاول أن أتعلم منها أي شيء.

وجدك الذي كان يأتي متعبًا.. يدخل من هذا الباب، وكان يستمع إلى الراديو

هناك.

كما أن والدتي توفيت هنا..

وأخذت تبكي بحرقة:

لا أستطيع أن أخبرك عن شعوري في ذلك الوقت، وكأن العالم توقف في ذلك

اليوم!..

كنت أشعر بالوحدة لغيابها، لكن والدك جعلني اجتاز هذه المرحلة..

وبقي إلى جانبي..

وعندما أصبحتُ وحيدة..

لم أجد سوى يارا التي لم تتركني يومًا..

تأثر توفيق بكلام والدته، وأخذ يسأل:

ريم الرفاعي

لكن لِمَ قمتِ ببيعه بعد وفاتهم ؟

- بقي سنين على حاله . . كنت أقوم بتفقده بين الفينة والأخرى ، واسترجع ذكرياتي معهما ، وأشعر بوجودهما معي وكأنهما على قيد الحياة .

لكنك عندما احتجتَ إلى المال لتبدأ خطوتك الأولى في العمل ، لم يكن باستطاعتي سوى التخلّي عن هذا المنزل لرؤيتك سعيد .

أشاح توفيق بنظره إلى الأسفل قائلا :

أتشعرين بالندم ؟

- لم ولن أشعر بالندم لما فعلت ، فأنا قمت بواجبي كأم وسعيدة بذلك . .

على كل حال ، دعنا نعود الآن . . والا تأخرنا .

عادت إلى الدار الذي وجده أبنائها بأنه المكان الأنسب لها .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الثاني والعشرون »

"الخامس من ديسمبر" ..

مرّ عامان على وجود ثراء في الدار.

واليوم بالتحديد ، وبعد غياب ثلاثون عامًا ، قررت مجدولين العودة مع عُمر..

وفور وصولهما اتجها إلى منزل مؤيد ، لكنهما علما بأن المنزل قد بيع..

استفسرا أكثر ليعلما بأنه بيع من قبل رجل يدعى توفيق ، وحالما عثروا على رقم هاتفه اتصلوا به :

- توفيق يتكلم ؟

- تفضلي!

- ابن شقيقي الغالي .. كيف حالك ؟

ريم الرفاعي

- عفوًا؟

- ألم تعرفني؟ أنا عمك..

- عمي مجدولين؟!..أهلا بك.. كيف حالك؟

- أنا بخير والحمدلله، لكني أريد أن أراكم..

أعطني العنوان..

وبعد ذهابهما إلى منزله، أخذت مجدولين تُعانق توفيق بشدة..

وبدأ النقاش بينهما:

- أين مؤيد وشواه؟

- ألم تعلمي بالأمر؟!..والدي توفي منذ حوالي ثلاثون عامًا.

- مالذي تقوله؟

- هذا ماحصل..

حينها جلست مجدولين خائبة الأمل وحزينة بعد أن جاءت على أمل اللقاء بأخيها..

ريم الرفاعي

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمه الله..

وأخذت تبكي..

- طمأني عن أمك.. كيف حالها؟ وأين هي الآن؟

حينها توتر توفيق وأخذ يغير الموضوع ، ثم ذهب ليحضر القهوة.

- أين هي والدتك يا توفيق ؟

- في الحقيقة ، أمي الآن بمكان يعتني بكبار السن جيدًا..

عمر:

أتقصد دار المسنين ؟

وإذ بتوفيق يومئ برأسه.

وقفت بجدولين متفاجأة :

ألا تخجل من نفسك؟

وأنت ابنها الوحيد!

ريم الرفاعي

- لست الوحيد . . فهناك شقيقي ربيع في ألمانيا ، وشقيقتي ليلى هنا في المدينة . .

وصدقيني لم تفعل ذلك إلا بسبب الحاجة.

- منذ متى وهي هناك ؟

- عامان تقريبًا .

وبعد أن حصلا على معلومات عنها . . توجّها إلى الدار.

ثم دخلا وأخذا يسألان عنها . .

وعند اللقاء تبادلت مجدولين وثراء العناق . .

فأخذت ثراء تتكلم عن الحادثة التي تعرض لها مؤيد ، وعن ما حدث لها طيلة هذه السنين ، ومن ثم سألتهما :

لكن أين ولديكما ؟ لابد بأنهما تزوجا الآن!

مجدولين :

نعم !

ريم الرفاعي

لكنهما بقيا في لندن ، فقد أسسا حياتهما هناك ، لذلك عدنا وحدنا للقائك.

وخلال جلوسهم ، أخذ الجميع يغني إحتفالاً بعيد ميلاد ثراء . .

حيث حضرت يارا مع ابنتها جميلة ، بعد أن خططت فاتنة مع الجميع. .

رأت مجدولين مقدار حب الجميع لثراء وشعرت بالسعادة لها . .

حينها دمعت عينا ثراء . .

فالجميع تذكر عيد مولدها ، إلا أقرب الناس إليها ، فهم مشغولون بحياتهم وهمومها . . حيث لاحظ الجميع مقدار حزن ثراء وتعاستها في هذا اليوم. .

فطيلة السنوات الماضية عاشت لأجلهم .

ريم الرفاعي

"من الصعب علينا التعايش مع فكرة هجر احبتنا لنا ، الذين لم نعش إلا لهم ولم نضحي إلا لأجلهم.."

لكن سرعان ما دخل توفيق ليفاجئ والدته ، مع هدية كان متأكد بأنها ستسعدها . .

وهي أن يعيدها إلى بلدتها ، بعد أن طلبت بارا منه ذلك ، وشرحت له عن تمنيها

للعودة إلى البلدة وتمضية حياتها هناك . .

فقرر أن يعيدها إلى البلدة لتعيش بقية حياتها هناك ، وقام بتحضير هذه المفاجأة لها

واتفق مع الدار لكي يستطيع إخراجها منه . .

هذه كانت هديته لها ، وكانت أجمل هدية لها على الإطلاق.

ريم الرفاعي

« الفصل الثالث والعشرون »

وقبل عامين . .

وخلال وجود ثراء في الدار ، كانت تمضي معظم وقتها في الحياكة . .

وكلما قام توفيق بزيارتها . . تقوم بإعطائه مجموعة من الملابس التي أحاكتها له وليلى

دون أن تعرف إن كانوا يستخدمونها أم لا . .فتشعر بسلام داخلي كلما فعلت

ذلك .

وفي ذات الوقت . .

توفيق ، الذي ذهب إلى الطبيب برفقة زوجته لمعرفة السبب في عدم انجابهما

للأطفال . . فاكتشف بعد ذلك بأنه عقيم ، لذا قامت زوجته بالإنفصال عنه قانونيا

وطلب مبلغ ضخم من المال . .

فأضطر للتخلي عن المشروع الذي كان يعمل به منذ مدة طويلة ، وكانت الكآبة

تلازمه طيلة هذه الفترة .

ريم الرفاعي

وبعد ستة أشهر من انفصاله عن زوجته ، عاد إلى العمل مهزومًا ، حيثُ كَثُرت

ديونه التي أصبح حجمها يفوق قدراته بأضعاف . .

إلى أن بدأ يستعيد نفسه . .

إلا أنَّه كان محطمًا لعدم قدرته على الإنجاب . .

الأمر الذي أضعف ثقته بنفسه .

أما من ناحية أخرى ، ليلى التي تزوجت دون إعلام والدتها بالأمر . .

فقد كانت تدير محل تصميم الأزياء ، لكنها لم تحظى بالشهرة التي لطالما حلمت

بها . .

لذا قررت أن تتزوج .

لكنّ زوجها لم يكن رجل صالح وطيب كما توقعت ، بل كان خبيث ومتعجرف

معها . .

فقد جعلها تتوقف عن العمل تمامًا ، وكان يضربها كلّما سنحت له الفرصة لذلك ،

لكنها أخفت الأمر لأنها قامت بإعطائه منزلها الذي اشترته عقب بيع محلها .

ريم الرفاعي

كما كان يمنعها من رؤية أصدقائها .. حتى أصبحت منعزلة عن العالم.

أما ربيع فقد كان مشغول بالمستشفى الذي تشارك بنائها مع أصدقائه

وزوجته..

لكنه لم يكن يعلم بأن أصدقائه قد يخدعونه ، وأن يقوموا بطرده من المستشفى

ليصبحوا مالكيها.

فبينما كان يجري إحدى فحوصاته مع مرضاه ، قام أصدقائه بوضع أدوات غير

معقمة لينصبوا له بذلك فخًا ، مما تسبب بإسعاف المرض على الفور ..

وحسب الإجراءات تأكد بأنه هو من كان وراء هذه الحادثة . حيث شهد

أصدقائه زورًا ضده ، فكان عقابه ترك مهنة الطب نهائيًا.

أضطر للعودة إلى بلده يائسًا ، ليبدأ بتكوين حياة جديدة مع نيكول وطفله ..

فقام ببيع منزله هناك ، وعاد ليعمل عند أحد التجار ، كناقل بضائع من مكان لآخر

...

لكن عقب المشاكل التي واجهتهم ، قررت نيكول أخذ الطفل وهجر ربيع ، وعادت

إلى بلادها وحياتها السابقة بعيدًا عن حياة الذل والفقر التي عاشها ربيع.

ريم الرفاعي

لكن رغم صعوبات حياته ، لم ينسى زيارة والدته . . وكانت مدة زيارته طويلة بالنسبة له ، حيث أنها لم تتجاوز الخمس عشرة دقيقة! .

•••

ريم الرفاعي

« الفصل الرابع والعشرون »

"السادس من ديسمبر 2013"

وبعد انتهاء الحفلة ، ذهب عمر وبجدولين إلى الفندق . .

وعادت ثراء إلى بلدتها ، لتقيم بين جيرانها ، وحال وصولها . . استقبلها الأهالي

بفرح واهتمام . .

وكل هذا حدث جراء تخطيط توفيق معهم . .

وفي صباح اليوم التالي استيقظت يارا وقررت الذهاب إلى البلدة لرؤية ثراء

والإطمئنان عليها . .

وعندما لم يفتح لها أحد ، ذهبت تسأل الأهالي عن مكان وجودها ، فأخبروها

بأنها لم تخرج منذ ليلة أمس.

وحينها شعر الجميع بالتوتر . . فقاموا بكسر الباب.

ريم الرفاعي

لكنهم صُدموا لرؤية ثراء ممددة على فراشها دون حراك ، حيث كانت صور العائلة متناثرة في كل مكان ، وكانت محتضنة صورة لها خلال فترة طفولتها تجمعها بوالديها .

دخلت يارا بعجلة لتوقظ ثراء . .

لكنها لم تستجب . .

ثم رفعت صوتها ، لكن دون فائدة . .

إلى أن بدأت بالصراخ والتوتر ظاهر على وجهها . .

لكن سُرعان ما حضر الجميع ليعلم بأن يوم السادس من ديسمبر هو يوم وفاة ثراء .

ريم الرفاعي

صاحبة العينان الزرقاوتان اللتان أصبحتا فيما بعد مرهقتان ليترك الزمن بهما علامة . . ها هما الآن مغلقتان تماما .

صاحبة الشعر المنسدل والذي أصبح فيما بعد كالغيمة التي توشك على الإمطار . .

ها هو الآن ممدد ساكن بسكونها .

صاحبة البشرة البيضاء النقية والتي أصبحت فيما بعد متهالكة . .

ها هي الآن تنام بنوم صاحبتها .

صاحبة الأنامل القوية التي عملت طيلة سنوات عاما والتي أصبحت فيما بعد مجعدة . .

ها هي الآن ثابتة دون حراك .

صاحبة الأبناء الثلاث التي كرّست حياتها لتحقيق أحلامهم . .

ها هم الآن يستعدون لموت الآفة والعبء الذين لطالما سعوا التخلص منها .

علم الثلاثة بما حدث مع والدتهم . .

ولحظة دخول توفيق رأى والدته المسكينة ممدة بغطاء على جسدها ، فبدأ بالصراخ مناشدًا اياها ، متمنيًا عودتها . . لكن دون أي جدوى.

قامت يارا بأخذه بعيدًا . .

وجلسا في الخارج يبكيان.

أما ربيع وليلى بقيا واقفان كأي غريب تكفّل بوفاة أحدهم ربما لشفقة أو لواجب.

ريم الرفاعي

"وفاتك أيتها الأم خنجر طعن بصدر طفلك ، هذا ما يشعر به أي إنسان . .

أما المفتقد للمشاعر صاحب القلب المتحجر ، سيشعر بأن وفاتك هدية من القدر ،

قُدمت له ليتمتع بحياته بسلام"

ورغم وفاتها ، إلا أن يارا لم تنسى صداقتهما يومًا واستمرّت بزيارة قبرها ، داعية

بأن ترقد روحها بسلام.

وعلى الرغم من نجاح توفيق في عمله ، إلا ان شعور الندم والتعاسة كانا يرافقانه

دومًا .

أما ربيع وليلى فقد عاشا حياتهما بذل ، ولم يلقيا احترام أحد . .

وكل منهم بدأ حياته بطريقة مختلفة بعيدًا عن الآخر.

ريم الرفاعي

"البعض يظن بأن الأموات تلتقي سويةً، وعلى هذا المبدأ ..

ثراء ستتمنى لو أنها ماتت منذُ زمنٍ بعيد لترى سمّية، توفيق، ومؤيد ..

فهؤلاء هم عائلتها التي أحبتها بصدق.."

مراجعة: خلود الرفاعي

...

ريم الرفاعي

"لا أحد يعلم بأني وبكتابة هذه الرواية قد شعرتُ بالراحةِ التامة ، لأني نشرتُ العبرة والفكرة اللتان كانتا تراوداني ، ولأن هذا الموضوع يسبب لي إنقلاب كامل..

فلم يكن من السهل علي التحدث بهذا الشأن .

فقد شعرت بألمِ الأم وبتمردِ بالأبناء ،
وعشتُ شخصية الجميع كلِ على حدى ..
متمنية أن ينتهي هذا الموضوع في كل مكان وفي أي زمان.

ولأن الوالدين لا يستحقون سوى المحبة والرفق والتقدير ..

اللهم أطل في عمر والديّ واجعلهما رفيقا رحلتي في هذه الحياة".

"تم بحمد الله"